وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الجهاد المدني" .. وأسلَمة اللاعنف

معتز الخطيب
mutaz@almultaka.net
كاتب سوري

"الجهاد" في الأصل اللغوي: بذل الجهد، ويتضمن معنى المُدافَعَة. وبهذا المعنى اللغوي يكون الصبر على الشدة جهادًا، ومدافعة النفس والشيطان والفساق وغيرها جهادًا، وليس شرطًا أن يكون في "سبيل الله"؛ فالقرآن استعمله بهذا المعنى اللغوي العام حين قال: (وإن جاهداك على أن تُشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما) [لقمان 15] وبهذا المعنى اللغوي العام جاءت الآيات المكية – ولم يكن فُرض القتال وقتها- (ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه) [العنكبوت 6] (والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سبلنا) [العنكبوت69]. وبعد فرض القتال نقل الشرع لفظ "الجهاد" من المعنى اللغوي العام إلى المعنى الشرعي وهو - بحسب ما يستفاد من النصوص المدنية - : "بذل الوسع بالقتال في سبيل الله عز وجل بالنفس والمال واللسان أو غير ذلك(1)" .
القتال بهذا المعنى الشرعي يفترض وجود "عدو"، وتوضح آيات وأحاديثُ كثيرة أن "الجهاد" هو "لإعلاء كلمة الله" و "في سبيل الله" ، وهو محل إجماع بين علماء المسلمين. وهذا المفهوم يستدعي في التصور الإسلامي القتال، والإعداد، وأحكام الجهاد كما هي مقررة في السياسة الشرعية، وعلاقات السلم والحرب، والاستشهاد وأحكام الشهيد، والغنائم وقسمتها، والاسترقاق إلى غير ذلك من الأمور المقررة في الفقه الإسلامي.
ومع نشأة "الدولة" - خصوصًا - ارتهن ذلك التصور في كثير من مفرداته للتاريخ، فانتقلت ممارسات الجهاد من أحكام "الإمامة" إلى ممارسات جماعات معزولة هنا وهناك، فلحظنا كثرة استعمال تعبير "الجهاد" في العصر الحديث بدءًا من الجهاد المقدس في فلسطين، و"الجهاد ضد الإلحاد الروسي"، وانتهاءً بجهاد بن لادن ضد أمريكا وفتاوى الجهاد في العراق، مرورًا بتسمية حركات وتنظيمات (مختلفة) بهذا الاسم؛ ما يسمح بتفسيرات متنوعة لكلمة "الجهاد" ، فضلاً عن التوظيفات السياسية للمصطلح إلى جانب تلك التوظيفات المختلفة "للجهاد" بحسب رؤى وتصورات تلك الجماعات المعزولة استُحدثت تعبيرات عديدة كالجهاد السياسي، والجهاد المدني، والجهاد الإلكتروني، والجهاد الاقتصادي، والجهاد الإعلامي، ... وما يهمنا هنا أن نقف عنده على وجه الخصوص هو ما سمي بـ "الجهاد المدني"، وهو التعبير الذي ظهر لدى تيار محدد في مشروعات الفكر الإسلامي المعاصر، والذي وسمه أحد الباحثين بـ "مشروع العمل الإسلامي المدني".

من "اللاعنف" .. إلى تعبير "الجهاد المدني"

محور هذا التوجه هو العمل السلمي الذي كان يتم التعبير عنه بـ "اللاعنف" قبل ظهور تعبيرات أخرى، ففي عقد الثمانينيات الماضي كانت هناك مناقشات عربية حول "المقاومة اللاعنفية" للطغيان والاحتلال – ولا تزال مستمرة في سياق التوجهات الرافضة للعمليات الاستشهادية وعسكرة الانتفاضة – غير أن التعبير عنها أُطلق عليه وقتها "المقاومة المدنية" وساهم مؤتمر عمان (15-18 نوفمبر 1986م) الذي انعقد لهذا الشأن في إشاعة هذه الفكرة (المقاومة المدنية)(2) .
في المقابل كان دعاة اللاعنف الإسلاميون يعملون – وبعضهم منذ الستينيات تقريبًا - على تأصيل مفهوم "اللاعنف" والعمل السلمي، ومع ذلك لم يكن تعبير "الجهاد المدني" أو حتى "المقاومة المدنية" شائعة في خطابهم.
لكن الصادق المهدي بعد خوضه ما أسماه "الجهاد المسلح" وخسارته عام 1976م أعلن ما أسماه "الجهاد المدني" ضد نظام البشير بعد أن أمّر الناس في أول عيد حضره بعد الإفراج عنه سنة 1991م، وأصدر حزبه (حزب الأمة) عدة أدبيات يبين فيها مفهوم الجهاد المدني باعتباره "يتضمن كافة أنواع المقاومة والمعارضة غير المسلحة" بهدف "عزل النظام وتوحيد القوى السياسية والنقابية في معارضته". وظل يؤكد من خلال منابر الأعياد معنى "الجهاد المدني" والسعي لحل "قومي سلمي ديمقراطي" كما يسميه (3).
بموازاة هذين التحركين فيما يبدو، بدأ تعبير "الجهاد المدني" يأخذ طريقه إلى خطاب دعاة اللاعنف فنجد خالد القشطيني يضع كتابًا سنة 1998م يسميه "دليل المواطن للجهاد المدني" ثم نجد خالص جلبي ينسب لنفسه (4) أنه "بلور مفهوم الجهاد المدني" ونلحظ أن كتاباته السابقة لم تحمل هذا العنوان، نحو: الحج ودرس اللاعنف، تأسيس لاعنف عربي داخلي، سيكولوجية العنف واستراتيجية العمل السلمي، فلسفة القوة والمقاومة ...
بل إن التعبير شاع لدى آخرين، فبعضهم يستشهد بحديث "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر"(5) ليقول: "هذا الحديث كان من الممكن أن تبنى عليه نظريات الجهاد المدني بأن يدافع العالم والمثقف كل سلطان جائر" . وجاء في بيان "إسلاميون من أجل الديمقراطية وحقوق الإنسان" الموجه إلى الحكومة المصرية: "إن الموقعين يدعون إلى: أن يستعيد أبناء الشعب المصري تراثهم المجيد في الجهاد المدني بكافة مستوياته ووسائله ..."(6) .
وكان من المحاولات البارزة في هذا السياق ما كُتب عن "الجهاد المدني .. الطريق إلى

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فعل مختلف"(7) ، في أثناء الحرب على العراق، وتبعها دعوة أحد أبرز مراجع الشيعة في العراق العراقيين إلى ممارسة "نوع من الجهاد المدني" ضد الاحتلال الأمريكي من خلال توجيه سؤال واحد للجنود الأمريكيين: "متى تخرجون من بلادنا؟(8)"! .

غير أن الجديد هنا هو السياق الذي تُقدم فيه هذه الدعوة، ففكرة "الجهاد المدني .. الطريق إلى فعل مختلف" تقوم على أن "الفرد المدني العادي الذي لا يحمل بندقية أو قنبلة يمكن أن يكون شريكاً أساسياً هو وأسرته ومن هم مثله في فريضة الجهاد ضد محاولات الهيمنة الأمريكية".

ويبدو أن دعاة اللاعنف الإسلاميين وهم يلحون على أسلمة فكرة "اللاعنف" وجدوا أن تعبير "الجهاد المدني" فيه استعارة لشرعية "الجهاد" واستثمار لقداسته، كما أنه يتجنب السلبيات والتحيزات التي تحيط بتعبير "اللاعنف" الذي يوحي بالسلبية والضعف (9) .

غير أننا نلحظ أيضًا أنه قد يكون هناك صلة ما بين الجهاد المدني والمجتمع المدني، خصوصًا أن بعض الأسماء التي استعملت "المقاومة المدنية" و "الجهاد المدني" تعتبر نفسها من دعاة "المجتمع المدني"، أضف إلى ذلك أن في هذا التعبير محاولة لتنقية مفهوم "الجهاد" مما علق به من سلبيات في مواجهة الآخر الغربي الذي يريد البعض الالتحام والتواؤم معه، فيظهر هذا التعبير في تقويم ما بعد 11 سبتمبر وكأنه يهدف إلى سد الفجوة بين الموروث الديني وأوضاع الحداثة، ويأتي ضمن مضاعفة جهود خطاب جديد مختلف جذريًّا ليؤكد وجوده في مواجهة تلك الصورة النمطية لتصوير الإرهاب الإسلامي الذي أخذ صورة "الجهاد"، ليقارع تنميطها ويقدم نموذجًا مختلفًا للجهاد.

"الجهاد المدني" .. في مواجهة الداخل والخارج(10)

إذن نحن هنا – ومن خلال الاستعمالات السابقة للمفهوم – إزاء مجالين بارزين: يتوجه الأول إلى استعمال "الجهاد المدني" في مواجهة النظام السياسي الداخلي، على نحو ما فعل حزب الأمة السوداني، ووثيقة "إسلاميون من أجل الديمقراطية" التي تجعل منه "تراثًا مصريًّا"!. وفي هذا السياق برز أيضًا لدى بعض قيادات الإخوان المسلمين ممن كان ينتمي إلى جيل حزب الوسط فكرة "الجهاد المدني" كمفهوم عصري للقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والذي يعني "العمل عبر التوعية والحوار والحق باختلاف الأفكار والمواقف وتعددها وعبر مؤسسات المجتمع المدني"، وهي فكرة تسعى للعمل خارج الإطار التنظيمي (كسر الإطار) وتقوم "على أن العمل السياسي بالمعنى التنظيمي العصبوي ليس ضروريًّا ويمكن الاستغناء عنه كليًّا لصالح العمل بأساليب الهيمنة الهيجيمونية للمجتمع المدني التي تعيد الاعتبار لمدرسة الدعوة في العمل الإسلامي" .

والحديث عن ممارسة "الجهاد المدني" في المجال الداخلي يمكن أن يفهم على أنه نتاج متغيرات الموقف من الدولة، فقد راهنت النخبة بعد الاستقلال – على اختلاف توجهاتها الأيديولوجية – على دور "الدولة" في إحداث التحولات الكبرى وتحقيق "النهضة"، لكن النتائج الكارثية التي حملتها التجارب القائمة والأخرى المجهضة - سواء لجهة الحريات والسلم الداخلي، أم لجهة مواجهة العدو والتحدي الأجنبي– أفرزت دعوات "المجتمع المدني" التي ظهرت في أوائل الثمانينيات أيضًا (أشرنا إلى أن فكرة "المقاومة المدنية" ظهرت في هذا الوقت)، ويأتي "الجهاد المدني" في محاولة اختطاف المصطلح الشرعي إلى سياق جديد يحمل توجهات ليبرالية بالاتكاء على استحقاقات تجربة المواجهة العنيفة مع الدولة، مع الوعي بالخطورة التي تختزنها "الدولة" بأجهزتها الأمنية والعسكرية، وهنا نجد أن "الجهاد المدني" يعبر عن صيغة مقابلة "للخروج" يراد لها أن تكون شكلاً مختلفًا "يتفق والواقع الراهن الذي لم يسبق له مثيل في تاريخها"؛ ومن ثم يكون "تحرير الأبنية والمؤسسات والهياكل هو ساحة الجهاد الأولى ومجال الخروج بهدف استعادة سلطان الأمة وحاكمية الشريعة"، وتكون "ساحة التنمية هي أقرب وأول ساحات العمل الجهادي" (11) ما يجعل منه نتاج مرحلة أزمة.

المجال الثاني لاستعمال المفهوم هو أنه يطرح في مواجهة العدو الخارجي، إسرائيل وأمريكا تحديدًا، وقد أشرت إلى أن هذا المجال احتضن مفهوم "المقاومة المدنية"، وفي هذا السياق يأتي رفض العمليات الاستشهادية في فلسطين وإدانتها، وتنهض دعوات اللاعنف في مقاومة المحتل، ويغلب على هذه التوجهات أنها غير إسلامية، وتلح معظم الكتابات عن "اللاعنف" (الجهاد المدني) على استحضار أسماء مثل غاندي، ومارتن لوثر كينغ الابن، وعبد الظفر خان وغيرهم.

أما دعاة اللاعنف الإسلاميون فيسعون بإلحاح لأسلمة الفكرة، ويمارسون قراءة تنحاز للنصوص التي تدعو إلى السلم والمواجهة غير المسلحة، ولا يبدو موقفهم واضحًا من الجهاد المسلح ضد الخارج (12)، بل إن بعضهم في الحين الذي يؤصل فيه للاعنف منذ الستينيات يحيل في موضوع الجهاد إلى أهل الاختصاص(13) .

وتشكل الدعوة إلى "الجهاد المدني" في مواجهة الهيمنة الأمريكية إضافة جديدة لاستعمالات المفهوم، غير أن تزامن هذه الدعوة مع الجدل المثار حول جدوى الجهاد المسلح، وجدوى العمليات الاستشهادية في فلسطين(14) وفتاوى الجهاد في الحرب على العراق، دفعت بالبعض إلى التشكيك في كون هذه الدعوة هي إلى (أحد) ألوان الجهاد، ما يعني فهمها على أنها دعوة لبديل عن الجهاد المسلح، تتم قراءته على أنه "طرح مغرض فيما يخص العلاقة مع الخارج تتحدد أهدافه برسم علاقة موادعة استتباعية قائمة على الطاعة وليس التدافع المشروع أحيانًا والعنف المشروع في حالة الاعتداء بالقوة أحيانًا أخرى"، في وقت "ترتسم فيه علاقة الأمة بقواها المختلفة مع الغرب برمته بهذا الاستقطاب العنفي الذي يبرز كأشد ما يكون على مستوى القضايا المركزية كما

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

في فلسطين والعراق وغيرهما"؛ ويرى صاحب هذا التوجه (15) أن من يُشيع "هذا المصطلح بعض قطاعات الإسلاميين ممن يعتبرون أنفسهم تضرروا من الاتجاه الجهادي، وأن مكاسبهم وجهودهم في العالم الإسلامي وفي العلاقة مع النظم السياسية أو جهودهم في الغرب قد بُدّدت".

هذه القراءة تصدق إلى حد كبير على من يُدينون "العمليات الاستشهادية" وينادون بالمقاومة السلمية كحل أوحد، وهي تستحضر "العلاقة مع الغرب" محورًا لها، وكأنها تستبطن موقف المفاصلة الحدية معه، في حين يبدو لديها "الغرب" – كمفهوم- كلاً بسيطًا، سواء بمعناه الجغرافي، أم الثقافي، أو السياسي!

وهذا الحكم الكلي، يغفل أن بعض الذين يدعون إلى ما يسمونه "الجهاد المدني" يذكرون أنه أحد ألوان الجهاد، فالشيخ القرضاوي - مثلا – وإن أطلق "جهاد العصر" على ألوان من العمل الدعوي والإنفاق والمقاطعة وغيرها، فإنه في مواقف أخرى كان صريحًا في الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله، وفتح الحدود، ويقول الشيخ فيصل مولوي: "إذا تعذر على المسلم المشاركة في هذا الفرض العيني (الجهاد/القتال) لأي سبب فهو لا يعفى من المشاركة بكل أعمال الجهاد المدني أو مناصرة إخوانه بكل ما يستطيع(16)" .

"الجهاد المدني" .. أسلمة مفهوم "اللاعنف"

لكن ماذا عن المفهوم وهل هو مرادف "للاعنف"؟ قلت: إن دعاة اللاعنف لجؤوا لتعبير "الجهاد المدني" طلبًا للمشروعية، ولمقتضيات الأسلمة، ما يعني أن المسألة لا تعدو كونها ترادفًا لفظيًّا بين التعبيرين، لكن مقال "الجهاد المدني .. الطريق إلى فعل مختلف" يجعل "اللاعنف" أحد مكونات "رؤيته" للجهاد المدني، والذي يحدد معناه في: التظاهر، مراقبة الإعلام، التواصل بين الفاعلين محليًّا ودوليًا، المقاطعة، أشكال اللاعنف: (المقاومة غير العنيفة، العصيان المدني، الثورات البيضاء)، العمل الاجتماعي: من الإغاثة إلى التنمية.

غير أننا بتأمل كتابات "اللاعنف" أو "النضال اللاعنفي" – وتحديدًا الموجهة للفلسطينيين- نجد أن صور المفهوم تتلخص في: أشكال الاحتجاج (لبس سواد، تجمع ورفع لافتات لتوجيه رسالة ...)، المسيرة، الإضراب، توفير الاحتياجات الإنسانية، الأعمال اليومية لمواصلة الحياة، الإنصات إلى معاناة الناس، اللجوء إلى القضاء الإسرائيلي، أعمال العصيان المدني، إعادة بناء المنازل المهدومة، مراقبة سلوك الجنود الإسرائيليين عند الحواجز، توفير الدعم، المقاطعة وبناء الذات، غرس الأشجار(17) ... .

لكن كتابات نظرية "اللاعنف" ومرادفها "الجهاد المدني" في مجالها العام تهدف إلى أوسع من ذلك، وهو ما يعبر عنه كريم دوغلاس كرو بقوله: "في هذا التعبير [أي "الجهاد المدني"] تكمن معانٍ وتضمينات النضال من أجل العدالة والحرية، وهي مختزنة داخل تعبير يساء استعماله كثيرًا وهو الجهاد، أي النضال من أجل العدل الاجتماعي ومن خلال صراع ليس عنفيًّا بالضرورة ولا يؤدي حتمًا إلى الدمار وإراقة الدماء" (18) . ما يعني أننا في الحقيقة أمام ترادف ظاهر، غاية ما في الأمر أننا أمام عملية أسلمة، تتوسل بأدوات مختلفة بحسب الأرضية التي يقف عليها من يمارس الأسلمة. فإذا كان دعاة اللاعنف الإسلاميون يبذلون جهودًا في إبراز تمظهرات الفكرة في التاريخ الإسلامي الراشد، وينحازون للجهاد النبوي المكي (جهاد الدعوة قبل فرض القتال)، ويمارسون قراءة أيديولوجية للنصوص تقابل قراءة الجهاديين الذين يجعلون من الجهاد حربًا ضد العالم بأسره لأجل كفره: فإن من يدعو إلى "الجهاد المدني" يسعى لأسلمته من خلال الاتكاء على مكونات ليبرالية في الأساس تُستمد من مفهوم "المجتمع المدني"، عبر مطّ حدود بعض المفاهيم الإسلامية كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعمل الخيري.

فنحن أمام محاولات جديدة تتلمس طريقًا "للفعل" بتواز مع الحملات الساعية من أجل الديمقراطية والحرية ونحوها ذات الصيغ العلمانية، وهنا يضحي من مرتكزات هذا الخطاب الناشئ إعادة اكتشاف وتأويل وإنتاج المصطلحات الإسلامية المركزية في سياق الفعل.

بيئة هذه المحاولات: الأوضاع السياسية المزرية والحالة الاقتصادية المتردية والأنظمة السياسية العاجزة الممعنة في عجزها عن مواجهة واجباتها داخليًّا وخارجيًّا، مع تغولها تجاه المواطن، حيث تغدو الصيغ التاريخية "للجهاد" و "الخروج" غير قابلة لأن تشكل حلولاً، فضلاً عن أن تكون ممكنة التطبيق الآن(19) .

"الجهاد المدني" .. التركيب الفسيفسائي!

لكن هاجس الأسلمة وتَلمس طريق للفعل أوقع في سلبيات متعددة، فالسيولة اللفظية: الجهاد الإعلامي، والجهاد الإلكتروني، والجهاد الثقافي، والجهاد السياسي ... في الحين الذي تريد توسيع دائرة الفعل ساهمت في تشظي المفهوم وتذويبه، حين راحت تمنح رتبة "الجهاد" لكل من يبذل جهدًا صغر أم كبر، وفي أي مجال كان، ليشمل "الجهاد" كل فرد في "المجتمع المدني"، ويصبح: ميدانًا للباحثين عن مضمون لهويتهم أو دور لهم في العملية السياسية، أو حلاً نفسيًّا يفرغ الاحتقان الذي يعتمل في صدورهم، أو تسليةً لنفوس الذين يتوقون للجهاد وتقصر دونه هممهم، أو من حاولوه وقعدت بهم الموانع ... أو يتم إعادة تأويل حديث "الجهاد ماض إلى يوم القيامة" بما يتناسب مع معطيات الواقع الجديد وإمكاناته.

ولعل أبلغ مظاهر تشظي المفهوم هو ما وُصف بأنه "جهاد ليبرالي يعمل على التصدي للتطرف والتشدد الإسلاميين" تعبيرًا عما تقدم به بعض أعضاء الحزب الليبرالي في هولندا من مقترحات لتشديد الرقابة على المدارس الإسلامية وإلزامها باحترام القيم الفكرية والاجتماعية للمجتمع الهولندي، ويلح قادة في الحزب الليبرالي على "أن حزبهم سيمضي قدمًا وبكل قوة في دعم جهاده الليبرالي باعتباره الوسيلة الوحيدة – برأيهم - لمحاربة التوجهات الإثنية والدينية الانفرادية للمدارس الإسلامية" (20) . يبدو أن "الجهاد

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الليبرالي" هو التعبير الأصدق عن مضمون "الجهاد المدني"!.
وفيما يخص تركيب "الجهاد المدني" فهو استعارة لمفهومين ينتمي كل منهما لمنظومة فكرية وقيمية مغايرة في بِنيتها الكلية، فـ "المدني" – وهو المفهوم الغربي- (لنتذكر هنا تعبير "المدنيين" الذين يراد تجنيبهم المقاومة في فلسطين) باستعارته من التصور الكلي الغربي إلى السياق الإسلامي من شأنه أن يخرج "الجهاد" عن حيزه "الديني" الخالص (شهادة، حياة أبدية، عظم الثواب الموصل إلى الجنة، شراء الله لنفوس المؤمنين مقابل القتال في سبيله ...) وفي حين يكون "الجهاد" في سبيل الله ببذل الأرواح وتقديم التضحية بالنفس في سبيل نصرته ورغبة في حياة أخروية، يكون "الجهاد المدني" – في بعض صوره لا كلها – سعيًا من أجل حياة دنيوية رغيدة، فهل يستوي جهاد باذلي الأرواح مع جهاد المترفين (21) ؟! وأي فضل سيكون للمجاهدين المؤمنين على زملائهم من المجاهدين في المجتمع المدني العالمي؟.
إن دعوة "الجهاد المدني" تشغب على المفهوم الشرعي للجهاد، وتضخم من أهمية أفعال لا ترقى إلى مكانة الجهاد في التصور الإسلامي والذي تحدثت كثير من النصوص عن فضائله وما أعد الله للمجاهدين في سبيله، وأخشى أن تؤول إلى بديل عنه في ظل المعوقات والإشكاليات التي تعوق ممارسة "الجهاد" بمعناه التنظيمي، وإن كانت العمليات الاستشهادية في فلسطين شاهدة على بقائه حيًّا في واحدة من أحد صوره، مع التذكير بأنها وسيلة وليست غاية، وتخضع لاعتبارات المصالح.

الهوامش

(1) هذا التعريف للكاساني، بدائع الصنائع، ج7 ص97 عن: محمد خير هيكل، الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، بيروت، دار البيارق، ط2، 1996م ج1 ص44.
(2) نشرت أعمال المؤتمر بعنوان: "المقاومة المدنية في النضال السياسي" وحررها سعد الدين إبراهيم، صدرت عن منتدى الفكر العربي في عمان 1988م.
(3) يمكن مراجعة ذلك عبر موقع حزب الأمة: www.umma.org
(4) في أحد مقالاته في صحيفة الرياض بتاريخ 13/مايو/2003 واستعمل كذلك "المقاومة المدنية" في مقال له على الجزيرة نت بتاريخ 2003/8/16.
(5) عبد الله الحامد، تجديد الفكر الديني، حلقة تلفزيونية في برنامج الشريعة والحياة، قناة الجزيرة، بتاريخ 2002/5/26.
(6) بيان "إسلاميون من أجل الديمقراطية وحقوق الإنسان"، 2003/8/28، ومن ضمن الموقعين أحمد عبد الله ومجدي سعيد وآخرون.
(7) عنوان مقال كتبه أحمد عبد الله، ونشر على موقع إسلام أونلاين.نت بتاريخ (22-3-2003).
(8) المرجع المشار إليه هو محمد علي السيستاني بتاريخ (17-6-2003)، وانظر تفصيل الدعوة في موقع إسلام أونلاين.نت.
(9) يشير كريم دوغلاس بوضوح إلى أن "تعبير اللاعنف قد تم استبعاده أو تجنبه بسبب التحيزات أو الانطباعات حول هذا التعبير لدى العرب المسلمين وهو يتضمن معاني السلبية والضعف وانتفاء الشجاعة". وتبعه على ذلك محمد أبو النمر أيضًا وكلاهما يتحدث عن "دعاة اللاعنف". يشار إلى أن كريم دوغلاس كرو باحث في قسم "الإسلام والسلام" من برنامج دراسات السلام بمدرسة الخدمات الدولية بالجامعة الأمريكية بواشنطن، وأبو النمر هو متخصص في مجال حل النزاعات، ويدّرس في كلية الخدمات الدولية بالجامعة الأميركية في واشنطن العاصمة. ينظر: كريم دوغلاس كرو، تأصيل السلام في الخطاب الإسلامي، مجلة إسلامية المعرفة، سنة7، 2001م، عدد 25 ، ص90، وأبو النمر، اللاعنف في إطار المفاهيم الإسلامية، مقال منشور في الحياة اللندنية، 2003/8/24.
(10) جمال باروت، تحويل الجماعة إلى حزب بين الإمكانية والعوائق، مقال منشور بتاريخ 29 أكتوبر 2003 في موقع www.arabrenewal.com
(11) هبة رؤوف، الجهاد .. أسلحة كثيرة قبل هدير المدافع، مقال منشور بتاريخ 2000/11/1 على موقع www.islam-online.net
(12) فخالص جلبي -مثلا- في الحين الذي يتحدث فيه عن أن أعظم إشكال يواجه "الجهاد المدني" هو الجهاد في سبيل الله، يذهب ليتحدث عن محاولات الخروج على الحاكم بالعنف ويدينها، لينتهي للقول: " لا بد من وضع قواعد صارمة لفهم (آلية) الجهاد و (وظيفته) و (بيد من) يستخدم؟ و(ضد من) يشن ؟"، وجودت سعيد يضع شروطًا للجهاد تكاد تلغيه، وفي بعض الأحيان يحيل القول فيه إلى "أهل الاختصاص"!.
انظر: خالص جلبي، بين الجهاد المسلح والجهاد المدني؟، مقال منشور على موقع www.islam-online.net، وجودت سعيد، الدين والقانون، كتيب منشور على موقع http://www.jawdatsaid.net/MASTER/BOOK.HTM.
(13) يشير د. محمد سعيد رمضان البوطي في مقدمة كتابه "الجهاد في الإسلام" إلى حواره مع جودت سعيد وأنه أشار له بالكتابة عن الجهاد في الإسلام.
(14) انظر - مثلا - سلسلة مقالات عن اللاعنف قدمتها خدمة Common Ground الإخبارية، ونشرت عددا منها صحيفة الحياة اللندنية، وكلها يدعو إلى اللاعنف، وتحديدًا في فلسطين، كخيار أمثل أو أوحد، فضلا عن موقف عدد من كتّاب "الحياة" الذين يعبرون عن هذا الموقف.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

(15) الإشارة هنا إلى رأي أحد الأصدقاء في حوار خاص بيننا، وأعتذر عن عدم ذكر اسمه.
(16) فتوى منشورة على موقع: www.mawlawi.net
(17) تم رصد هذه الأشكال من سلسلة مقالات عن اللاعنف نشرتها خدمة Common Ground الإخبارية لكل من: مبارك عوض مدير مؤسسة اللاعنف الدولية، ولوسي نسيبة مؤسسة ومديرة مركز الديموقراطية واللاعنف، وجوناثان كتّاب محام فلسطيني متخصص في حقوق الإنسان، وغيلا سفيرسكي ناشطة سلام وحقوق إنسان إسرائيلية.
(18) كريم دوغلاس كرو، مصدر سابق، ص89.
(19) من المهم هنا العودة إلى الإشكالات التي تحيط بمفهوم الجهاد في ظل "الدولة" العلمانية، وقد طرحتها في مساءلتي لفتاوى الجهاد، بعنوان "فتاوى الجهاد في الحرب على العراق: وقفة للمساءلة"، و "فتاوى الجهاد .. مساءلات وإيضاحات"، مقالان منشوران بتاريخ 2003/4/15 و2003/7/2 على موقع www.islam-online.net
(20) انظر تفاصيل ذلك في موقع إسلام أونلاين.نت، نقلاً عن صحيفة "نيدرلندس داخبلاد" الهولندية في عددها الصادر بتاريخ (2-11-2003).
(21) بعض دعاة المقاومة اللاعنفية يقاوم الاحتلال بالأغاني والعزف عند الحواجز العسكرية للاحتلال الصهيوني! تأمل: محمد دراغمة، الفن واللاعنف: حياة تصعد من خراب، مقال منشور في الحياة بتاريخ 2003/07/27.

"الجهاد المدني" .. مفهوم بديل أم فعل الممكن؟

إعداد: معتز الخطيب **07/12/2003**

هل أضحى "الجهاد" مفهومًا مراوغًا؟ بالأمس القريب كانت المراوغة من استعمالات المفهوم وتطبيقاته، والنزاع يقوم حول: هل هذا الفعل أو ذاك من الجهاد؟ لكن مع السيولة اللفظية التي شهدناها من الجهاد المدني، والجهاد الإعلامي، والجهاد الاقتصادي، والجهاد الثقافي و... ربما بدأت تسري المراوغة -أو تؤول- إلى المفهوم ذاته لأسباب وظروف مختلفة؛ منها تعقيدات الواقع، ومنها الأيديولوجي، ومنها السياسي، ومنها غير ذلك.

والحديث عن "الجهاد" ليس حديثًا عن قضية هامشية ولا وقتية، بل سيظل حديثًا عن أمر حيوي ومركزي في تصوراتنا وواقعنا، وكانت صفحة "الإسلام وقضايا العصر" قد أفردت مساحات واسعة لمفهوم الجهاد وتطبيقاته من زوايا نظر مختلفة، غير أن الجديد في هذا الملف أنه ينفرد بالحديث عن مفهوم "الجهاد المدني" الذي شاع مؤخرًا من خلال مستويين: مستوى نظري يناقش المفهوم ذاته، ومستوى تطبيقي يتوجه لقراءة تجربة الجهاد المدني في فلسطين.

أضف إلى ذلك أن الملف يعرض لوجهات نظر مختلفة، لكنها تؤول إلى موقفين على وجه الإجمال: موقف الدعاة إلى الفكرة، وموقف المختلفين معها على مستوى التطبيق أو المفهوم.

<u>في الملف يستعرض خالص جلبي الإشكالات التي تواجه الجهاد المدني (العمل السلمي) الذي يدعو إليه</u>، ويقول: إن الحلول المطروحة لجرثومة العنف غير نافعة؛ فالحل برأيه يكمن في "استعمال النصوص ومفاتيح الثقافة الإسلامية بتركيب أدوية ولقاحات نحقن بها العقل العربي ضد جرثومة العنف التي تسري في مفاصل الثقافة وشرايينها، مسببة نوافض مريعة من دورات العنف كما في بردية الملاريا!"؛ لأن "ثقافة الجهاد المغلوطة تنتج وفق نسخ مزورة". ويرى أن إشكالية الجهاد لم تعالج حتى اليوم على نحو واضح مع كل وضوح النصوص القرآنية، واختلط الخروج على الحكام بالجهاد الإسلامي.

مشكلة العنف –برأيه- تقود إلى التعقيد في ثلاثة اختلاطات يأخذ بعضها برقاب بعض: أنها أولا حلقة مغلقة تحكم بقبضتها على من دخل لعبتها، وهي ثانيا دائرة يزداد أطرافها تآكلا ومعاناة، وهي ثالثا تزداد اتساعا مثل حريق الغابات.

<u>ويقدم أحمد عبد الله محاولة تأصيل لمفهوم "الجهاد المدني" الذي يقول:</u> "إن الفرد المدني العادي الذي لا يحمل بندقية أو قنبلة يمكن أن يكون شريكا أساسيا هو وأسرته ومن هم مثله في فريضة الجهاد ضد الهيمنة -أو بالأحرى محاولات الهيمنة- الأمريكية". ويرى أن الجهاد المدني "مفهوم مركب مستمد من عدة روافد قديمة وحديثة"، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واللاعنف، والعمل الاجتماعي، والمجتمع المدني. وبناء عليه فإن عمليات مثل: جهاد النفس، ومدافعة التخلف في السلوك الفردي والعام، ومواجهة الاستبداد في المجتمع والحكم، وغيرها من المظاهر السلبية التي نعيشها

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

"تحتاج إلى إعادة اعتبار ونظر؛ بوصفها جهاداً مفروضاً على الجميع". ويستعرض نماذج واقعية للمفهوم كالمقاطعة ومراقبة الإعلام التقليدي، والتظاهر وغير ذلك.

محمد مسعد يرى في "الجهاد المدني" ونحوه التفافًا حول المعنى الواضح للجهاد وهو القتال، ويقول: "جرت محاولات لمطّ حدوده ليشمل معاني كثيرة، كالجهاد الأكبر: جهاد النفس، وتم اللجوء لتعريفات ترتكن إلى التفسير الحرفي للكلمة -بذْل أي "جهْد" في سبيل الله- بغية تسلية المحرومين من الجهاد الذين لا يجدون إليه سبيلا، أو سعيًا إلى دفع الناس لمحامد الأفعال". ويرى أن تعبير "الجهاد المدني": يزاوج بين "الجهاد": المصطلح المتجذر في القرآن والسنة والفقه والتاريخ الإسلامي، و"المدني": المصطلح المتجذر في التاريخ الأوروبي والثقافة والرؤية العلمانية.

ويقدم تحليلا اجتماعيًّا أنثروبولوجيًّا بسيطًا لخطاب الجهاد المدني، من خلال رؤيته كملمح من ملامح تفكك "الرواية الكبرى" (النظريات الكبرى التي تسعى إلى وضع رؤية شاملة قادرة على تفسير الحياة وحركة التاريخ) ليصل إلى القول: إن "الجهاد المدني" يعكس تفكك وتحلل الرواية الكبرى التي حملها الإسلاميون خلال القرن الماضي التي كانت تنادي بالإسلام كنظام محكم ومتماسك وشمولي وواحد مركب من أنظمة سياسية واقتصادية واجتماعية.. متكاملة ومترابطة.

ويرى في السيولة اللفظية التي ترتبط بالجهاد كطوفان من العلامات الثقافية الفاقدة للمعنى، يقبل عليها المستهلكون، ويمنحونها المعاني التي تروق لهم بحرية؛ فالجهاد المدني كمشروع حين يدعوك لاستهلاك خطابه وعلاماته الثقافية هو يعدك أيضًا أن تكون منتجًا لهذا المشروع، يمكنك أن تنتج النشاط الذي تحب وتستهلكه، وتمنحه علامات الجهاد وصوره، وتغذيه بالمعنى الذي يرضيك.

معتز الخطيب يرصد نشأة مفهوم "الجهاد المدني" واستعمالاته لدى تيار ما يمكن تسميته "بمشروع العمل الإسلامي المدني"، وتحولات التعبير عن العمل السلمي من اللاعنف إلى تعبير "المقاومة المدنية" الذي ظهر في أوائل الثمانينيات في سياق مقاومة المحتل إلى "الجهاد المدني" الذي ظهر بدايةً في سياق المواجهة مع النظام السياسي الداخلي، وشاع لدى شخصيات عدة كنتاج لمتغيرات الموقف من الدولة. كما برز أيضًا لدى بعض قيادات الإخوان المسلمين ممن كانوا ينتمون إلى جيل حزب الوسط كمفهوم عصري للقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي فكرة تسعى للعمل خارج الإطار التنظيمي (كسر الإطار).

ويرى أن "الجهاد المدني" سرى إلى دعاة اللاعنف الإسلاميين في مرحلة متأخرة؛ إذ في استعارته استعارة لشرعية "الجهاد" واستثمار لقداسته، كما أنه يتجنب السلبيات والتحيزات التي تحيط بتعبير "اللاعنف".

ويقول: إن هناك صلة ما بين الجهاد المدني والمجتمع المدني، أضف إلى ذلك أن في هذا التعبير محاولة لتنقية مفهوم "الجهاد" مما علق به من سلبيات في مواجهة الآخر الغربي؛ فيظهر هذا التعبير في تقويم ما بعد 11 سبتمبر وكأنه يهدف إلى سد الفجوة بين الموروث الديني وأوضاع الحداثة.

وحول العلاقة بين اللاعنف والجهاد المدني يرى أن المسألة لا تعدو كونها ترادفًا لفظيًّا بين التعبيرين، غاية ما في الأمر أننا أمام عملية أسلمة تتوسل بأدوات مختلفة بحسب الأرضية التي يقف عليها من يمارس الأسلمة؛ فمن يدعو إلى "الجهاد المدني" يسعى لأسلمته من خلال الاتكاء على مكونات ليبرالية في الأساس تُستمد من مفهوم "المجتمع المدني"، عبر مطّ حدود بعض المفاهيم الإسلامية كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعمل الخيري.

فهذا الخطاب يمارس إعادة اكتشاف وتأويل وإنتاج المصطلحات الإسلامية المركزية في سياق الفعل، لكن هاجس الأسلمة وتلَمس طريقٍ للفعل أوقع في سلبيات متعددة؛ فالسيولة اللفظية ساهمت في تشظي مفهوم الجهاد وتذويبه، حين راحت تمنح رتبة "الجهاد" لكل من يبذل جهدًا، وفي أي مجال كان؛ ليشمل "الجهاد" كل فرد في "المجتمع المدني، ولعل أبلغ مظاهر تشظي المفهوم هو ما وُصف بأنه "جهاد ليبرالي يعمل على التصدي للتطرف والتشدد الإسلاميين"، ويخلص إلى القول: إن دعوة "الجهاد المدني" تشغب على المفهوم الشرعي للجهاد.

منير شفيق يقدم قراءة لنظرية اللاعنف عالميًّا وفلسطينيًّا تتلخص بالقول: إن التجارب العالمية أثبتت الخلل الكبير في تعميم أسلوب بعينه (العنف أو اللاعنف) على كل الحالات، أو الدفاع عنه بطريقة أيديولوجية أو تجريدية مفرطة في إطلاقيتها. فما من أسلوب نجح في التغيير إلا كانت وراءه -ومعه- أسباب أخرى شاركته الوصول إلى النجاح، ولهذا لا يمكن أن يُرد النصر له وحده.

قضية أخرى أثبتتها التجارب؛ وهي أن من يستورد أسلوبا بعينه، ويطبقه في بلده، ولا يكون مناسبا لسمات المكان والشعب ولطبيعة العدو.. سيجد أسلوبه مهمشاً لحساب ما يفرزه الواقع والعفوية الشعبية، أو لحساب الأسلوب/الأساليب الأكثر تلاؤماً مع خصوصية الحالة المعنية. ذلك أن التجربة هي محك الاختبار.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وفيما يخص الوضع الفلسطيني يرى أن التجربة الفلسطينية أثبتت طوال تاريخها الحديث بأنها فريدة بين الفرائد، واستثنائية بين كل استثنائي، وأن "اللاعنف المباشر" غير ملائم للظرف الفلسطيني، ومن دون أن يتهم بالعقم. فالتجربة التاريخية والراهنة، والحياة نفسها، وطبيعة الوضع مكاناً وزماناً وعدواً وظروفاً، وما يمكن أن يستجد من موازين قوى وظروف إقليمية وعالمية.. هو ما يحدد ألوان الكفاح وتفوقها في آن واحد.

بين الجهاد المسلح والجهاد المدني؟

د. خالص جلبي ** **07/12/2003**

في النقاش الذي كان يدور بيني وبين أحد رموز الجهاد القتالي كان يتعجب من طرحي فكرة (الجهاد المدني) بدون قتال فيعلق بأسلوب لا يخلو من السخرية، وبقدر كبير من الطمأنينة: ماذا تفعل بهذه الآية: "فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ"؟ إنها مشروع تكليف فردي قبل إلزام الجماعة والدولة؟!

إشكالات تواجه مفهوم "الجهاد المدني"

أعظم إشكال يواجه فكرة (الجهاد المدني) غير المسلح في العالم الإسلامي هي فكرة الجهاد في سبيل الله التي تتضمن القتال المسلح وهو عنف بالضرورة. اللاعنف إذن فكرة غير إسلامية؛ لأنها تعطل الجهاد وهو ماضٍ إلى يوم القيامة، ومن مات ولم يغزُ ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبةٍ من النفاق.

والجهاد المدني -أو اللاعنف – ثانياً: مصطلح غير إسلامي، غربي مستورد: نبيه غاندي من الهند في القرن العشرين، أو هو مفهوم مسيحي؛ فمن لطمك على خدك الأيمن أدر له الأيسر، تمثله فرقة الآميش في أمريكا في نموذج منقرض لا يتماشى مع الطبيعة الإنسانية. واللاعنف أو المقاومة غير المسلحة إذن مفهوم غريب لم ينبت في تربة الثقافة الإسلامية، وهو يصطدم -بشكل جوهري- مع فكرة الجهاد في سبيل الله، بمعنى القتال المسلح.

اللاعنف -ثالثاً- غير مفهوم في ضوء عشرات الآيات التي تحض على القتال في سبيل الله مقابل اعتماد بضع آيات من سورة المائدة في صراع ابني آدم الذي اتخذ أحدهما موقف عدم الدفاع عن النفس "لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ" لآيات نسختها آية السيف في سورة التوبة تحت عنوان مجلجل في "براءة من الله ورسوله" في رسالة واضحة إلى المشركين -غير أصحاب العهود- في الجزيرة العربية أن أمامهم مهلة أربعة أشهر يسيحون في الأرض في مواجهة خيارين بعدها: الإسلام أو السيف، لتنشأ ثقافة في العلاقات الدولية؛ إن الدولة الإسلامية في علاقة حرب مع الدول المجاورة فإما دفعت الجزية أو اعتنقت الإسلام، أو الحرب كخيار لا مفر منه؟!

حلول غير نافعة لجرثومة العنف

لفك هذه الإشكالية لن ينفعها أن تتهم أمريكا (بن لادن) أنه إرهابي في الوقت الذي تشعر الجماعات الإسلامية المسلحة أنها تجاهد في وجه أكبر طاغوت على وجه الأرض يكيل بميزانين، ويعيق نمو العالم بشرك أعظم من حجم قرار الفيتو، كما لن تنفعها كتابات جماعة ما بعد الحداثة في مهاجمة الأصولية أنها ضد العقلانية والتنوير وتاريخية النصوص، كما لن يولد الحل من الدوائر الأمنية في العالم العربي التي تطارد التنظيمات السرية المسلحة تحت الأرض في محاولة لاستئصالها، في لعبة الفأر والقط والتملص من قبضة المخابرات لتتكاثر بأشد من أعشاب الأرض في فصل الربيع بعد شتاء ماطر، يغذيها حماس للإسلام أكثر من وعي منهجي، في استحضار مرير لتاريخ عظيم أمام واقع بئيس، واستبداد سياسي يقود الأمة إلى كوارث وبئس الورد المورود.

الذهنية الإسلامية.. مفتاحها النصوص!

الدخول إلى أي كمبيوتر لا بد له من معرفة مفتاح الدخول PASSWORD وحتى يمكن أن نتعامل مع برنامج الذهنية الإسلامية لا بد من مخاطبته بالكلمة التي يحترمها ويثق بها ويمكن أن تغيره. لا بد من استعمال النصوص ومفاتيح الثقافة الإسلامية بتركيب أدوية ولقاحات نحقن بها العقل العربي ضد جرثومة العنف التي تسري في مفاصل الثقافة وشرايينها، مسببة نوافض مريعة من دورات العنف كما في بردية الملاريا!

This file was downloaded from QuranicThought.com

لقد أصبح العنف داء متوطناً كما نرى، والمجتمع العربي في عمومه غير محصن ضده، وأي بقعة معرضة للزلزال؛ لأن ثقافة الجهاد المغلوطة تنتج وفق نسخ مزورة. إشكالية الجهاد لم تعالج -حتى اليوم- على نحو واضح مع كل وضوح النصوص القرآنية. فلا الفقهاء قديماً صاغوها في نظرية متماسكة، ولا مفكرو النخبة الإسلامية وصلوا إلى رؤية مبلورة فيها، وما يزال رجال من مستوى القمة في التفكير الإسلامي يرون أن لا حرج من الانقلابات العسكرية البيضاء! ولكن من يضمن بياض الانقلاب من احمرار لونه ما دام السلاح هو الفيصل و"في حده الحد بين الجد واللعب؟".

حتى (أبو حنيفة) -وهو من أجود الأدمغة التي أنتجتها الثقافة الإسلامية- رأى في خروج (محمد ذو النفس الزكية) في ثورته على أبي جعفر المنصور ما يشبه خروج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى معركة بدر، وتمنى لو استطاع حمل السيف إلى جانبه، ولكنه أرسل له ينصره بالفتوى والمال، ولعل هذا كان سبباً في موته مسموماً على رواية أوردها (أبو زهرة). وهكذا اختلط الخروج على الحكام بالجهاد الإسلامي حتى في عقلية فذة من حجم الفقيه الأعظم رضي الله عنه.

خوارج الأمس وخوارج اليوم!

لا غرابة أن نَشَأَ في تاريخنا اتجاه دموي كامل يحمل اسم "الخوارج". وإذا كان "الخوارج" قد مثلوا أقصى التطرف فإن أفكارهم -تزيد وتنقص- تم اعتناقها من اتجاهات لم تسمّ نفسها بالخوارج، ولكنها أحيت أفكارهم دوماً عبر التاريخ الإسلامي، انتهاء بالاتجاهات الإسلامية السياسية المعاصرة في كثير من أجنحتها؛ فالخوارج ينامون اليوم مستريحة عظامهم بعد أن تم إحياء مذهبهم!

لا بد من وضع قواعد صارمة لفهم (آلية) الجهاد و(وظيفته) و(بيد من) يستخدم؟ و(ضد من) يشن؟ وإلا فإن أمامنا دفع فواتير مريعة من الدماء مع فوائدها المركبة.

يعتبر (مالك بن نبي) أن معركة (صفين) هي أكبر من كارثة في التاريخ الإسلامي؛ فمعها انكسر مخطط الحضارة الإسلامية. ويعتبر (النيهوم) أن الدولة الأموية تشبه أعرابياً بحث في أفخاخ أطلال الحضارات فأقام دولة بيزنطية جديدة بفارق بسيط: إنها دولة تلبس عباءة الخلفاء وتقتل أحفاد النبي صلى الله عليه وسلم، ومن أخطر ذيول معركة صفين: ولادة اتجاه الخوارج الذين حملوا السيف في وجه الحاكم -الذي يبدو (لهم) ظالماً- كأعظم جهاد، فقتلوا أعدل الناس؛ الإمام علي رضي الله عنه، في الوقت الذي اتفقت فيه الأمة بكل مدارسها أن عمل الخوارج لا يوصف بحال أنه جهاد، بل هو مروق السهم من الرَّمِيّة.

يبدو أن الثقافة العربية الإسلامية دخلت نفقاً مسدوداً في مشكلة تداول السلطة السلمي، فبعد الخلفاء الراشدين وحياة الرشد لم يبق إلا الغي، ولم يأت مفتاح الحل من داخل ثقافتنا، بل من وراء أعمدة هرقل من بحر الظلمات؛ فنحن اليوم نسمع بالديموقراطية وتبادل السلطة السلمي فنركض خلفها لنلبسها عباءة الشورى ونطليها بدهان إسلامي بعد أن لم يكن في كل تاريخنا شورى للحظة واحدة بعد علي رضي الله عنه في ظاهرة استعصاء كامل للثقافة، وعندما عالج (ابن خلدون) مشكلة السلطة لم يستطع فهمها خارج (العصبية) فلم يكن بمقدوره أن يتصور مجتمعًا يُحكم بغير السيف بإدارة جماعية؛ فقد دفنت تلك الأفكار في رمال الصحراء مع بني مروان.

ولو تأملنا رأي (الخوارج) أن الخليفة لا يشترط فيه أن يكون من قريش، بل أي رجل مناسب من الأمة، ولو كان أسود اللون مجعد الشعر رأسه كأنه زبيبة، ربما نجده تفكيرا ديموقراطيا بلغة الحداثة، ولكن المشكلة في الخوارج وسواهم -بمن فيهم المعتزلة أصحاب الاتجاه العقلاني– أنهم رأوا استخدام العنف في وجه خصومهم؛ وإلا فكيف نفهم تعذيب ابن حنبل على يد العقلانيين؟

العنف.. مرض الكثيرين

مرض العنف إذا لم يكن مرض الخوارج فقط، بل كان مرض الكثيرين وما يزال على درجات مختلفة من سُمّية الجرعة.

فأمام الانحراف الأموي انحرف الخوارج بزاوية أكبر فاتهموا مخالفيهم بالكفر واستباحوا دماءهم وتركوا خلفهم عشرات الفرق في رحلة انشطارية انتحارية. واليوم لم يبق أموي ولا خارجي، ولكننا ورثنا ثقافة العنف ودمنا الثقافي يعج بجراثيمه، فكما كان للمرض (وحدته) الأمراضية من جرثوم وفيروس.. كذلك فإن (فكرة العنف) تشكل (الوحدة) الأمراضية في الثقافة.

وإذا كان الخوارج يمثلون التجلي الأعظم فهم كانوا أجرأ، وأما البقية فهم يرونهم على حق ولكن لا يملكون هذه الجرأة الرائعة وروح التضحية التي يملكها الخوارج، وعندما أرسل أحد رموز الجهاد في بلد عربي رسالة إلى علماء وفقهاء الأمة يدعوهم إلى الخروج على الحكام (الكافرين القوميين) مع مطالبتهم بالرد الخطي كانت أجوبة الكثيرين: نحن معه في ذلك،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ولكن لن نكتب لأننا لا نملك جرأته في الحق، والشخص الوحيد الذي أجابه بشكل خطي كتب: إنني لا أرى هذا أسلوباً سليماً في حل المشاكل، وليس طريق الأنبياء بحال.

ولكن مشكلة العنف أنها تقود إلى تعقيد المشكلة في ثلاثة اختلاطات يأخذ بعضها برقاب بعض: إنها أولاً حلقة مغلقة تحكم بقبضتها على من دخل لعبتها، وهي ثانياً دائرة يزداد أطرافها تآكلاً ومعاناة، وهي ثالثاً تزداد اتساعاً مثل حريق الغابات حتى لا تبقي من مساحات الحياة الخضراء شيئاً.

الجهاد المدني.. الطريق إلى فعل مختلف

د. أحمد محمد عبد الله ** **07/12/2003**

"ماذا نفعل؟" سؤال الوقت الذي يتكرر مع كل أزمة تشتد وتتعرض لها الأمة؛ حيث يعم الشعور بأننا أسرى خيارين لا ثالث لهما؛ فإما القيام بفعل مسلح والاشتباك بالقوة مع مصدر التهديد، أو القعود والاستسلام فريسة لليأس. لقد حاولنا أن نثبت أن بين الخيارين مساحات من المشاركة والفعل، وذلك عبر تجارب مختلفة في مهام لدعم الانتفاضة، وكان كاتب هذه السطور قد بلور مبادرة في مواجهة أحداث 11 سبتمبر، كما بدت الانتفاضة العالمية ضد الحرب على العراق فرصة أكبر وأبلغ دلالة على ما حاولنا إثباته بما يدفع الآن لضرورة إطلاق مبادرة مبدئية -نسعى لإدارة حوار ونقاش مفتوح حولها- تبلور الخبرات المترامية، وتواجه دورات الإحباط المتكررة عند الأفراد حتى تصبح المقاومة فعلا يوميّا.

وعليه فإن الأفكار والسطور التالية تنطلق من اقتراح مبدئي لا بد من القبول به لتصبح التصورات المطروحة هنا ذات معنى وجدوى. وهذا الاقتراح يقول بأن الفرد المدني العادي الذي لا يحمل بندقية أو قنبلة يمكن أن يكون شريكا أساسيا هو وأسرته ومن هم مثله في فريضة الجهاد ضد الهيمنة -أو بالأحرى محاولات الهيمنة- الأمريكية، وإذا كانت شعوب الأمة قد تفانت طوال تاريخها في تنظيم بذل حياتهم استشهادا وفداء لمعتقداتهم وأوطانهم؛ فإنه قد حان الوقت ليتعلموا كيف ينظمون مفردات عيشهم وحركتهم اليومية في سبيل رفعة هذه الأديان والأوطان.

الجهاد المدني .. روافد المفهوم

الجهاد المدني هو مفهوم مركب مستمد من عدة روافد قديمة وحديثة، ويسهم في تفسيره وتسييره عدة مكونات، وأعتقد أن استعادة هذه الروافد متضافرة، وفهم آليات هذه المكونات قد بات ضرورة حياة بالنسبة لأمتنا. ومن هذه الروافد والمكونات:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

أ- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وهو قطب محوري حاكم في التصور الإسلامي، بل وكل فكرة دينية أو إنسانية ذات طابع اجتماعي، ولا أقصد في هذه العجالة فتح نقاش -أراه لازما- حول الالتباسات والعقبات التي أحاطت بالمفهوم، ولم تزل تعطله أحيانا، أو تفتعل فيه ما ليس منه أحيانا أخرى، ولكنني أقول بوضوح: إن استدعاءه هنا يأتي بوصفه شيئا مختلفا عن مجرد فعل الخير البسيط -على أهميته-، وهو مختلف عن الوعظ والإرشاد، وعن المعارضة السياسية أو غيرها من وجوه تم صرف المفهوم إليها. ولسنا هنا بصدد نقاش صحة كل فهم من هذه الأفهام أو دلالته، ولكننا فقط نقصد التوضيح بأننا نصرفه إلى أفق أوسع، وتطبيقات أكثر تركيبا وعمقا. ونرى لذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يتم إلا بأنشطة تضم آحاد الناس، وتدربهم على إدارة شئون أنفسهم في مجال من مجالات الحياة: تعليم وصحة... إلخ، على نحو يقيم المعروف بمعناه الواسع، ويحارب المنكر بصوره المتعددة ومستوياته المختلفة، وهذا -في فهمنا- هو معنى تغيير المنكر باليد الذي هو أعلى مراتب هذه الفريضة المظلومة.

ليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مجرد وظيفة يحتكرها "أولو الأمر"، أو تبتذلها مجموعات من المتحمسين؛ فتضرب سكيرا أو تحرق ناديا للفيديو... إلخ، بل هي جهود تتصدى للغيبوبة بالوعي والتوعية، وتسعى مثلا لإنتاج إعلام وترفيه نافع وممتع بدلا من أن تكتفي بخلع شعرة من جسد الإعلام الضال المضلل، ولا ينحصر دور آحاد الناس -في تصورنا- على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باللسان والقلب والوعظ والتنبيه، إنما يتعدى الأمر إلى إقامة بنيان الخير

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

ومقاطعة روافد الشر، ودعوة الناس إلى هذا وذاك، وتدريبهم على المهارات اللازمة للنهوض به، والتماس التمويل اللازم له من القادرين بوصفه ركنا من أركان الدين لا يقوم إلا به، وبوصفه فريضة واجبة على كل إنسان يؤمن بالله واليوم الآخر، ويدرك أن الله سيسأله يوم القيامة عن الدور الذي قام به فيها أو تخاذل عنه!

اللاعنف.. الكل يمكنه الفعل:

ب- اللاعنف وهو من مناهج التفكير والفعل التي تتسق مع الدعوة للجهاد المدني؛ إذ يقوم على استخدام أساليب في التواصل والتعبير والتعبئة والتأثير تبتعد تماما عن العنف بدرجاته وأنواعه، بل وتحاربه بوسائل شتى.

والعنف هنا يأتي بمعنى واسع يمتد إلى المستوى اللفظي وغيره من مستويات العمل والتفاعل مع الأحداث والأشخاص في الدوائر المختلفة، بدءا من الأسرة وانتهاء بالمجتمع الدولي، ومن أنواع العنف التي يغفل عنها الناس مثلا ما يمكن تسميته "العنف بالترك"، وهو الإهمال بصوره، والفساد بأنواعه.

وهناك علاقة وطيدة بين العنف والقوة؛ فالاعتماد على فكرة القوة بأنواعها كمدخل للتغيير أنتج تركيزا للفاعلية -على المستوى النظري- في مساحات بعينها، حتى ارتبط التغيير في أذهان الناس بالحاجة إلى قوة إيجابية مادية مسلحة أو غير مسلحة لإنفاذه، وأنتج هذا صراعا مضاعفا على السلطة؛ حيث لا فعل خارج دائرتها طبقا لهذا الفهم، وبالتالي أصبح الفعل محصورا في نخبة معينة هي التي تمتلك القوة لتفعل!

واللاعنف منهج يرى أن الكل يمكن أن يفعل، وأن عدم امتلاك القوة المادية ليس ضعفا بل هو نوع آخر من أنواع الفاعلية يمكن تسميته بقوة الضعيف التي تربك القوي الذي لم يتدرب إلا على مواجهة العنف بالعنف، والقوة المادية بالقوة المادية.

وفي التاريخ أمثلة متعددة على منهج اللاعنف في العمل، وهو على درجات، منها ما يسمى بالمقاومة "غير العنيفة" مثل حالة: غاندي في الهند ضد الإنجليز، ومنها صور العصيان المدني، وحتى الثورات البيضاء مثل الثورة الإيرانية، واعتماد منهاج اللاعنف -في تصورنا- مثله مثل توسيع مفهوم "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" يقتضي تفعيل عمليات تنمية المهارات والقدرات والإمكانات الفردية والجماعية لإنجاز آلاف المبادرات التي لا تحتاج إلى قوة مادية لإنفاذها.

من الإغاثة إلى التنمية:

ج- العمل الاجتماعي: هناك مفهوم شائع للعمل الاجتماعي، وهو العمل الخيري التقليدي المرتبط بمؤسسات أو تجمعات دينية أو جهوية أو فئوية، ويستهدف في الأغلب تقديم خدمات إنسانية أو مساعدات مالية أو عينية بما يقترب من المفهوم الإغاثي (أي حل مشكلات الناس الحياتية العاجلة)، ولأسباب متعددة فإن النتيجة النهائية لأنشطة هذا العمل تدور في مستوى تحقيق الكفاف، وليس الكفاية والتطوير، وفى أغلب الأحيان فإن الكوادر والعقليات التي تقوم على إدارة هذا العمل تتصف بالروتينية والتقليدية، ورغم وجود نسبة لا بأس بها من التطوع فإن الروح السائدة غالبا ما تكون هي الروح السلبية المسيطرة في مؤسسات الدولة.. لاحظ أن أغلبية القيادات تكون من الموظفين السابقين أو الحاليين محدودي القدرات والمهارات.

وبالمقابل فإن المستفيدين من خدمات هذا العمل ينظرون إليه، وينتظرونه بوصفه منحة محدودة ومؤقتة، وليس مدخلا للإنتاج والاستغناء عنها في المستقبل.

ولا ينفى هذا أن قطاع العمل الاجتماعي يقوم بدور كبير في تقديم الخدمات الأساسية: صحة، تعليم، تكافل اجتماعي... إلخ للقاعدة العريضة من الناس.

أما العمل الاجتماعي من الزاوية التي نريد التركيز عليها هنا فيعني الانتقال من إغاثة الناس، وتقديم خدمات إعانتهم على مواجهة الصعوبات المختلفة إلى بناء قدراتهم، وتطوير مهاراتهم، ورفع كفاءتهم على تنظيم جهودهم، وحل مشكلاتهم، وإدارة شئونهم بأنفسهم. وبذلك ينتقل العمل الاجتماعي من مستوى الإغاثة إلى التنمية، ولا تتم هذه النقلة إلا بشروط عدة؛ منها: رفع كفاءة القائمين على هذا العمل، ونقل الكثير من الخبرات الناجحة والمتطورة منهم وإليهم. وقد تقتضي هذه النقلة التبشير بثقافة التطوع وسط الأجيال الجديدة؛ مما يدفع بدماء شابة في شرايين العمل الاجتماعي المتصلبة، ويعيد رسم خريطة الأدوار، وتبادل الخبرات بين الأجيال.

ومن الجدير بالذكر هنا أن تفعيل أصول فكرة التطوع في ثقافتنا يبدو شرطا لازما لكفالة هذه النقلة استثمارا لزخم موجة الاهتمام والالتزام بتعاليم الدين؛ مما يستلزم خطابا إسلاميا جديدا يسلط الضوء على الأصول والنصوص التي تربط بين فعل الخير ونفع الناس.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

من العمل الاجتماعي.. إلى المجتمع المدني:

د- ومن العمل الاجتماعي إلى دائرة أوسع؛ حيث دور المجتمع المدني الذي تتمثل أنشطته في العديد من المؤسسات الجديدة نسبيا التي يعمل أغلبها في مجالات التنمية والدفاع عن حقوق الإنسان والمرأة والطفل.

ومع بزوغ هذه الظاهرة -على الصعيد العربي- في أوائل الثمانينيات غلب على تمويلها المصادر الأجنبية بالأساس، وبدت منعزلة عن القواعد الشعبية، وربما كانت هذه العزلة بسبب قائمة أولوياتها التي تبدو غريبة عند كثير من الناس، وتعيش هذه المؤسسات "محنة المثقف" بكل أبعادها؛ حيث يبدو مغتربا منفصلا عن واقعه، منطلقا من مرجعيات وقضايا ليست هي الأهم بالنسبة للأوضاع المحلية، ويبدو عاجزا بالتالي عن بلورة خطاب يتلاقى مع هموم مواطنيه، ويتفاعل مع اهتماماتهم.

بينما تفترض المنظومة الفكرية الأصلية للمجتمع المدني أن المواطن والجماعة فاعلة مباشرة بوسائل البحث والتدخل والضغط المدني على السلطة أحيانا، والتفاوض أو الدعم أحيانا أخرى، وتعتمد الهيئات غير الحكومية على قوة الاتصالات والمعلومات، وتوعية الرأي العام وضغوطه، مستهدفة الفعل بذاتها، ومتجاوزة مجرد انتقاد السلبيات كما في أسلوب المعارضة السياسية.

وعمل المجتمع المدني أصلا يختلف عن العمل السياسي في عدة نقاط غير الأسلوب المستخدم والهدف المنشود؛ ففي فلسفته الأصلية يرى نفسه شريكا مباشرا في التسيير والعمل الوطني بالشراكة أو المشاركة مع أجهزة الدولة، ومع بقية الفاعلين من برلمانيين وإعلاميين وقيادات شعبية ورجال أعمال، ولا غضاضة عنده في أن يكون وسطا للتفاعل بين الأجيال المختلفة، أو الاتجاهات الأيديولوجية المتنوعة، أو بين الجهود المحلية أو الدولية حول قضايا بعينها، وهو في هذا يتجاوز الفكر السياسي التقليدي؛ حيث لا يكون الفعل إلا عبر السلطة بالوصول إليها أو بالاندماج فيها أو معارضتها.

والأصل أن يبدأ من طاقات محلية حية وموجودة، وقضايا حقيقية، معتمدا على التمويل المحلي، وموظفا لهذا كله في خدمة جزئيات بعينها، ومتواصلا مع الأطراف الدولية المناسبة، مستهدفا إحداث تغيير اجتماعي وثقافي يكون أساسا لتفكير وممارسة سياسية أكثر رشدا وفاعلية لمن يريد ممارسة السياسة، وبحيث يكون المجتمع المدني هو الفضاء المفتوح لاستيعاب الجهود المجتمعية وتفعيلها وتطويرها، وتلاقيها مع الجهود الرسمية والدولية دعما للأداء في القطاعات المختلفة.

المجتمع المدني العالمي.. العالم الجديد:

هـ- البعد العالمي: ويبدو أن جانبا كبيرا من إدراكنا لأهمية تطوير تجربة المجتمع المدني في عالمنا العربي ترتبط بالعالم الذي بدأنا نكتشفه أخيرا.. عالما جديدا ضخما لم نكن ندركه أو نراه من قبل، وهو المجتمع المدني العالمي، رغم أنه كان موجودا زاخرا ومتفاعلا منذ وقت بعيد. فالمظاهرات المليونية التي تتحرك في عواصم أركان المعمورة الأربعة ليست مجرد تجمعات من عابري السبيل أو الشباب المتحمس أو الموظفين الحكوميين.. بل هي نتيجة لتنسيق بين آلاف التجمعات المدنية التي تعمل في ميادين شتى، وتتواصل عبر شبكة الإنترنت وغيرها، وتبني تحالفاتها حول قضايا بعينها، منها العنوان العريض: "مناهضة العولمة"، وقضية الساعة الراهنة "مناهضة الحرب على العراق".

وفى هذا المحيط الهائل تدور أفكار وبرامج وخبرات وتجارب وطاقات وموارد يمكن التواصل معها، والاستفادة منها في دعم وتخصيب الأفكار والجهود والتجارب المحلية، وسواء كان الاحتكاك مباشرا عبر المشاركة في المؤتمرات والتجمعات، أم كان غير مباشر بالاتصال عبر شبكة الإنترنت؛ فإننا نراه ضروريا للاطلاع على ما يدور في هذا العالم، "والحكمة ضالة المؤمن.. أنى وجدها فهو أحق الناس بها".

وفضلا عن الدعم المعنوي والخبراتي الذي يمكن أن يوفره التواصل مع هذا المحيط؛ فإن فهم الكثير من القضايا المحلية لا يمكن أن يتم إلا عبر رؤيتها في إطار مجمل الصورة العالمية، ولكن هذا التواصل لا يمكن أن يتم إلا بتكوين رؤى وكوادر قادرة على الاشتباك مع قائمة الموضوعات المطروحة، ولا تكفي هنا مجرد الرغبة الجامحة أو النوايا الحسنة.

وبالتدريج سنكتشف أن العلاقة بين الاجتماعي المحلي والدولي العولمي أكبر مما نتصور، ومن الجدير بالذكر أن وجود العرب والمسلمين ما يزال ضعيفا في هذه المنتديات والتجمعات والتحركات.. فهل نبادر وننتهز الفرصة؟!

الجهاد المدني .. الفعل خارج الإطار:

و- الإطار العملي: الحركة الواسعة الدائبة التي نحرص على بعثها تحتاج إلى إطار للحركة والتسيير، وفي خبراتنا المعاصرة تعودنا أن تتجسد الأفكار والبرامج في أشخاص وهياكل تكون هي عنصر التحريك والتطوير، وتخلق من حولها دوائر من المتحمسين للفكرة بدرجات متفاوتة، وبالرغم من تعدد الأشكال واللافتات التنظيمية ما بين أحزاب وجمعيات

This file was downloaded from QuranicThought.com

وجماعات متنوعة الأحجام والأهداف.. فإن عيوبا مزمنة ظلت قاسما مشتركا بين كل هذه الهياكل، ومنها الصراعات الداخلية والتآكل التدريجي، وعدم القدرة على مسايرة التغيرات ومقاومة الضغوط.

وما تطرحه فكرة الجهاد المدني أنها ليست محدودة بهيكل أو متحيزة محتكرة في إطار.. بل هي متحررة من هذا وذاك، تفعل عبر الأفراد، بل عبر استعادة الوحدات التقليدية التي اندثرت كفاعل نشيط مثل الأسرة والعائلة وجماعة الجيران وشلة الأصحاب، وتستفيد من الأشكال الاتصالية الجديدة مثل مجموعات الإنترنت، ورغم أن هذا التحرر من الأشكال التنظيمية الشائعة يفقد الفكرة إيجابيات الإطار التقليدي؛ فإنه بالوقت ذاته يخلصها من أعباء وقيود التراتبية الهرمية، واحتكار القرار والمبادرة، وضمور الإبداع، والملاحقات وأنواعها؛ فهو يجعل كل هذه المهام مرهونة بقدرات الفاعلين المباشرين وإمكاناتهم بحسب موقعهم ومحيط حركتهم.

ولا ينفي ما تقدم أهمية الجماعية، وإنما يحاول أن يقترح أشكالا جديدة لتبادل الخبرات والتجارب، وإدارة الطاقات والقدرات، وتطوير المهارات والفعاليات الفردية والتواصل بينها، والجديد الذي نحاول إضافته هنا أن تتم كل هذه التفاعلات داخل إطار ونسيج المجتمع مباشرة، وليس داخل الهيئة أو المؤسسة أو الحزب أو الجماعة ثم تنتقل للمجتمع كما هو حاصل، وفي هذا الصدد لا يمكن إغفال تجارب حركة مثل حركات مناهضة العولمة في مرونتها وتنوعها وبساطتها وسرعة انتشارها وتأثيرها، ومن أهم الدروس التي يمكن أن نتعلمها هنا من هذه الحركة فكرة التعاون والتفاعل حول قضية محددة بغض النظر عن الاختلاف الذي يمكن أن يكون موجودا في القضايا الأخرى.

الجهاد المدني.. والجهاد المسلح

"الجهاد" رافد أساسي؛ حيث يتطلب تأسيس تجربة "الجهاد المدني" النقاش حول تجلي مفهومه -عموما- في أذهاننا، وحول ما يبقى منه بعد استعراضنا لروافد ومكونات مختلفة دون تعرض مباشر له؛ إذ يبرز الفهم السائد للجهاد على أنه الفعل القتالي المباشر بسلاح مادي مع عدو ظاهر متحيز في شيء أو مكان أو أشخاص، رغم أن هذه هي لحظة التركيز والاحتشاد النهائي لعمليات متنوعة سابقة على هذه اللحظة، وهذه العمليات هي أصل الجهاد والقوة في الحقيقة، سواء دارت هذه العمليات داخل النفس أو المجتمع.

إن تغيير ما بالنفس أوسع بكثير من مجرد التزكية الأخلاقية أو التخلص من المعاصي بالمفهوم الشائع، إن تغيير النفس يعني إكسابها القدرة على الفعل البسيط المتراكم الذي يحدث تغييرا في الذات وفي المحيط الأقرب للإنسان. (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم).

والاقتصار على الظن بأن القوة في الحرب هي السلاح، وأن الجهاد هو لحظة القتال، وأن الفريضة الغائبة تتطلب نفيرا في اتجاه الالتحام المادي مع قوات العدو فحسب دون أنواع النفير الأخرى الغائبة.. هذا الفهم ساهم في تعطيل بقية العمليات الجهادية المطلوبة بشكل يومي على كل المستويات.

إن عمليات مثل: جهاد النفس، ومدافعة التخلف في السلوك الفردي والعام، ومواجهة الاستبداد في المجتمع والحكم، وغيرها من المظاهر السلبية التي نعيشها تحتاج إلى إعادة اعتبار ونظر؛ بوصفها جهادا مفروضا على الجميع. ولقد أثبتت الأحداث أن الإعداد النفسي للقتال، والاستعداد للتضحية، والتعبئة للمعركة النهائية ليست معضلة ولا صعبة المنال، على خلاف بقية العمليات الأخرى المشار إليها، ونرى أن غياب الإعداد والجهاد بمعانيه الواسعة قد أدى إلي نتائج شديدة السلبية على المستوى الفردي والجماعي، كما نرى أن قصر مفهوم الجهاد على معنى القتال المباشر قد أصاب بقية المعاني والنواحي والمستويات بعطب شديد، وأصاب نفوس الناس بإحباط عميق؛ لأن الظروف المادية والموضوعية المتاحة تمنع من القتال المباشر منذ عقود، وإلى أن يشاء الله غير ذلك.

نماذج واقعية.. من يحتضنها؟

الروافد والمكونات التي عرضناها لمفهوم "الجهاد المدني" لا تعني الغياب التام لنماذج وتجارب تعد تطبيقا فعليا للمفهوم، ونسعى هنا لإلقاء الضوء على بعضها:

حركة المقاطعة:

ونعني بها الحركة الشعبية الواسعة التي بدأت مع اندلاع انتفاضة الأقصى -وقد تم تقديم متابعة إخبارية وتحليلية لها على الموقع- وبتطبيق النقاط السابقة سنجد أن هذه الحركة المباركة يمكن أن تكون مثالا ومادة خاما تصلح للتطوير في اتجاهات متعددة، وآفاق متطورة لتصبح من أهم معالم وأدوات "الجهاد المدني" الذي نتحدث عنه، ويمكن الحديث عن بعض اتجاهات وآفاق التطوير في اتجاه دعم الاقتصاد الوطني للأقطار العربية والإسلامية، وكذلك تشجيع الادخار ومحاربة الإسراف والترف، والتأسيس لثقافة مقاومة تنتقي أو تقاطع من المنتجات الثقافية والفنية بناء على تصورها لما هو صواب

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

ومناسب لهويتنا، وما هو خطأ أو غير لائق بنا.

وتحتاج حركة المقاطعة إلى جهود كثيرة في البحث عن المعلومات الموثقة، وفي التبشير بأفكارها، وتبسيط أطروحتها، ونشر برامجها بين الناس.. فهل من متطوعين؟!

الدبلوماسية الشعبية عبر الإنترنت:

ونعني بها الحركة الواسعة التي نشطت -وما تزال- للاتصال بين الفاعلين من الأفراد والتجمعات متنوعي الاتجاهات والخلفيات في البلدان العربية والإسلامية ونظرائهم في بقية أقطار العالم التي طرحت كمبادرة مبدئية يمكن أيضا الحديث عن تطوير هذه الحركة لتحتل مكانا متميزا في تيار "الجهاد المدني"، وخاصة أن حركة أو حركات مناهضة الحرب قد أصبحت ظاهرة كونية هائلة تحتاج إلى تواصل أكبر منا بوصفنا أصحاب القضية.

ولم يعد مقبولا أن تقتصر جهودنا في هذا الصدد على مجرد المتابعة، وتداول المعلومات والصور، إنما ينبغي أن نتدرب على الدخول كأطراف أصيلة في هذه التحركات محليا ودوليا، والمسألة مفتوحة للمقترحات والإسهامات.. فهل من مستجيب؟!

مراقبة الإعلام التقليدي:

وليس لدينا من معلومات هنا سوى مثال أو مثالين على بدايات يمكن تطويرها لتصبح فعلا منتظما في تحسين أداء الإعلام التقليدي بوسائله المتاحة من صحافة وقنوات فضائية ومحلية ووكالات أنباء... إلخ، سواء على مستوى احترام الثقافة المحلية أو نشر المعلومات الصحيحة أو تطوير الرسالة التي يبثها شكلا ومضمونا.

ودور الإعلام يبدو الأشد خطورة مع بدء اندلاع الهجمات، والإدارة الأمريكية ستكون حريصة على رسم صورة معينة لما يحدث، وفي غياب وعينا أو قلة معلوماتنا، وضعف إمكانات إعلامنا، أو غياب فلسفة محددة له يمكن أن تحدث بلبلة واسعة أو موجة جديدة من الصراخ تساهم في تكريس الشعور بالعجز بدلا من الاقتراحات بالأفعال الممكنة والمتاحة والمؤثرة.

ومراقبة الإعلام المحلي والدولي ستكون مهمة كبيرة تحتاج إلى أن نقوم نحن -المشاهدين- بدور فاعل في تحسين أداء إعلامنا من ناحية، والضغط على الإعلام الأمريكي -أو الموالي لأمريكا حيثما كان- ليعطي صورة أقرب للواقع.

فهم وتفعيل آلية التظاهر:

آن الآوان لنقوم بتطوير الهامش المتاح والفعل المتكرر بالتظاهر؛ ليكون أكثر تعبيرا وتأثيرا مما هو عليه الآن، إن المظاهرة ليست مجرد مجموعة أفراد يجتمعون ثم ينفضون، وليست مجرد شعارات أو صيحات تنطلق للتنفيس.

المظاهرة آلية مهمة لحشد الجهود من خلفيات فكرية وعملية مختلفة، وهي تعبير عن الاستعداد والنظام والجاهزية، وهي نموذج للتعاون والمشاركة بين الشعوب والأنظمة، والأمر يحتاج إلى مزيد من الاهتمام والنقاش.

جسور وشبكات:

وتحتاج كل هذه التحركات والأفكار إلى أن تنتقل من الإنترنت إلى المجتمع، ومن النخب إلى الناس، ويقتضي هذا نوعا من التبسيط في لهجة الخطاب وأدواته، وربما يحتاج إلى نوع من الإعلام الاجتماعي الموازي للإعلام التقليدي الموجود بالفعل، ولن يتم هذا إلا بإبداع في الوسائل البسيطة التي تنفذ وتنتشر أوسع وأسرع، وحركة التبسيط أو الإعلام الموازي هذه تحتاج إلى طاقات وجهود كثيرة وأفكار ومقترحات من الجميع.. فهل من متفاعلين؟!

تحتاج كل هذه البدايات إلى احتضان وتفعيل وتشبيك ودعم يساهم في استثمار الطاقات وتوسيعها، وتشجيع المبادرات، وتنمية مهارات العاملين والفاعلين فيها.

هذه هي الأفكار التي وددت أن أطرحها في تلك اللحظة الدقيقة من حياة أمتنا، لحظة تحتاج منا إلى التركيز والتفكير، والعمل المنظم، والحوار الهادئ، وسننجح بمقدار ما نحتفظ بعقول تعمل، وجهود تتشابك تدفعها مشاعر تفيض في قلوبنا جميعا.

إن معركتنا مع الظلم والباطل والشر طويلة ومريرة، ولو استطعنا تنظيم أنفسنا، وإنتاج ردود أفعال مؤثرة؛ فإن هذا سيكون نجاحا يقلل من تضحياتنا، ويخفف من شعورنا بالخسارة في هذه الجولة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الجهاد المدني ونهاية الرواية الكبرى

د.محمد مسعد**

07/12/2003

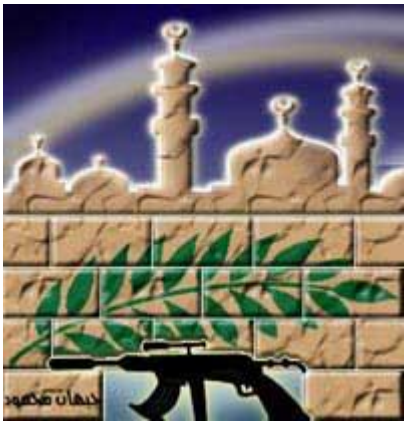

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: دلّني على عمل يعدل الجهاد، قال: "لا أجده". وسأل الرجلَ -مؤكدًا على عظمة مكانة الجهاد- فقال له: "هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر؟!". من البين هنا أن القيام والصيام -على علو شأنهما- ليسا صنفين من أصناف الجهاد الذي لا يعدل عمله عمل. إنه الجهاد الذي عرّفه الله تعالى حين قال في سورة التوبة: {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون}، وهو الجهاد الذي ما أطلق اسمه خلال القرون الإسلامية المديدة إلا وعرف أن المقصود به بذل النفوس والدماء رخيصة ابتغاء وجه الله تعالى وصيانة لدينه.

الجهاد.. ومحاولات مطّ حدوده

في الآونة الأخيرة تم الالتفاف حول هذا المعنى الواضح للجهاد وتجنبه، وجرت محاولات لمطّ حدوده ليشمل معانيَ كثيرة؛ كالجهاد الأكبر: جهاد النفس، وتم اللجوء لتعريفات ترتكن إلى التفسير الحرفي للكلمة -بذْل أي "جهْد" في سبيل الله- بغية تسلية المحرومين من الجهاد الذين لا يجدون إليه سبيلا، أو سعيًا إلى دفع الناس لمحامد الأفعال كتزكية النفس وبذل المال ونشر الدعوة، أو دفاعًا عن تهم العنف الملصقة بالإسلام. لكن الحق أن للجهاد معنى شرعيًّا محددًا، فيه أن تَقتل وتُقتل، ونحن إما أن نقيمه أو لا نستطيع أن نقيمه أو لا نريد إقامته. نعم أطلق النبي صلى الله عليه وسلم الجهاد على شعيرة الحج، لكن ذلك في حديث أورده البخاري تحت باب "جهاد النساء" حين روي عن عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- أنها قالت: استأذنت النبي صلى الله عليه وسلم في الجهاد، فقال: "جهادكن الحج". فالحج جهاد، لكنه جهاد النساء، أما جهاد الرجال الذي أرادته أم المؤمنين فتعريفه واضح ومحدد ومعلوم.

"الجهاد المدني" .. انعكاس لتفكك رواية الإسلاميين الكبرى!

ننتقل هنا إلى مصطلح "الجهاد المدني" الذي لجأ إليه -كما يذكر د.محمد أبو نمر، صاحب كتاب "اللاعنف وبناء السلام في إطار المفاهيم الإسلامية"- رواد اللاعنف في العالم العربي، مثل خالد القشطيني، وخالص جلبي، ووجودت سعيد، ومحمد الشيرازي، لتجنب كلمة "اللاعنف" التي قد توحي بالاستسلام والتقاعس.

هذا المصطلح يزاوج بين "الجهاد": المصطلح المتجذر في القرآن والسنة والفقه والتاريخ الإسلامي، و"المدني": المصطلح المتجذر في التاريخ الأوروبي والثقافة والرؤية العلمانية. أما ما يدعو إليه هذا المصطلح فهو مجموعة كبيرة وشديدة التنوع من الأهداف مثل: تدعيم المجتمع "المدني"، وتنشيط الحوار الوطني، والتواصل مع الجماعات والمنظمات العالمية التي تدعو لحقوق الإنسان، أو الحفاظ على البيئة، أو الحوار بين الأديان، إلى آخر هذه الأهداف التي لا يجمعها إلا كونها تتجنب استخدام السلاح في الوصول لمآربها.

غايتنا في هذا المقال تقديم تحليل اجتماعي أنثروبولوجي بسيط لخطاب الجهاد المدني، من خلال رؤيته كملمح من ملامح تفكك الرواية الكبرى (Grand Narrative).

يطلق المفكرون لفظ "الرواية الكبرى" على الأيديولوجيات والنظريات الكبرى التي تسعى إلى وضع رؤية شاملة قادرة على تفسير الحياة وحركة التاريخ؛ برد الجزئيات والمفردات اليومية إلى صورة كلية متناسقة تفترضها هذه الأيديولوجيات وتلك النظريات؛ باعتبارها تجسيدًا للحقيقة المتمثلة في الواقع. في هذا السياق تأتي الماركسية والداروينية والبنيوية وغيرها من النظريات الاجتماعية الكبرى، كما تأتي الأيديولوجيات القومية والدينية كأمثلة لهذه الروايات الكبرى.

ويؤكد المفكرون ما بعد الحداثيين -مرة بعد أخرى- على موت هذه الروايات الكبرى جميعها واندثارها لغير رجعة. فيكتب ليوتارد: "ببساطة شديدة فإن ما بعد الحداثة هو عدم تصديق الروايات الكبرى". ويقول بودريلارد ساخرًا: إن "سر النظرية هو أنه بالفعل لا توجد حقيقة!". أما رائد التفكيكية دريدا فيكتب أنه "لا توجد حقيقة في نفسها، وإنما تخمة منها؛ فحتى لو كانت الحقيقة من أجلي وعني؛ فإنها لا شك متعددة". الحقيقة القيم المطلقة، النظام، والواقع المتسق: كل ذلك من مخلفات عصر التنوير، وتراث الحداثة. أما النسبية والتعددية والتغير الدائم والتنظيم المستحيل للواقع فهي شعارات العصر الجديد.

This file was downloaded from QuranicThought.com

نذكر هذه المقدمة لأننا نرى أن "الجهاد المدني" كمفهوم، وكمشروع للحركة والفعل، يعكس تفكك وتحلل الرواية الكبرى التي حملها الإسلاميون خلال القرن الماضي. الرواية الكبرى التي كانت تنادي بالإسلام كنظام محكم ومتماسك وشمولي وواحد مركب من أنظمة سياسية واقتصادية واجتماعية.. متكاملة ومترابطة، والتي كانت تنادي بالخلافة الكبرى، والتغيير السياسي الجذري، وأستاذية العالم.. هذه الرواية تتفكك الآن بهدوء شديد (حيث لا مناظرات فكرية تبحث عن "الحقيقة") وسرعة أشد.

مصطلح فسيفسائي.. يحوّل المركز إلى هامش!

مثل منتجات ما بعد الحداثة؛ فإن المصطلح فسيفسائي يجمع الديني مع العلماني في تجاور لا يعارضه أحد، ويتجه - كمشروع فكري- إلى الميكروبوليتيك التي تهدف إلى التغييرات الجزئية الصغيرة، والمرتبطة بالأنشطة اليومية، دون أن تأبه إلى وجود إطار جامع يضمها معًا في مشروع تغييري ضخم ومتناسق. ينأى الجهاد المدني عن الاهتمامات النظرية، حاديه في المسير براجماتية نشطة، معيارها النجاح العملي أو الفشل. الجهاد المدني يهمل السياسي بمعناه القديم، يتجاهله، أو يلتف حوله؛ لينغمس في أنشطة ثقافية، واقتصادية، واجتماعية، تبني نجاحاتها جسوره وتمهد طريقه، أو بالأحرى طرقه المسترسلة.

الملاحظ هنا أن الرواية الكبرى لم تمت تمامًا كما يزعم ما بعد الحداثيين، لكنها تحولت عن موقعها، ابتعدت عن المركز (حيث لا مركز)، وغدت إحدى مكونات الفسيفساء. ليس غريبًا أن تقرأ مقالا هنا أو هناك يدعو إلى ما كانت تدعو إليه (أي الجهاد/القتال)، لكن هيهات أن تتحول تلك الدعوة إلى حاد يقود المسير.

غاية هذه الدعوة أن تضيف لونًا زاهيًا إلى مجموعة الألوان. تزار هذه الرواية أحيانًا حين تُفتقد، يتجول زائروها في أروقتها ليستمتعوا بروعة الأثر الجميل، لكنها قطعًا لا تُسكن، لا تغدو دارًا يقيمون فيها ولا يرحلون.

وظيفة أخرى تقوم بها الرواية الكبرى حين تمزّق ثم تنسخ صور قِطعها لتغطي الجدران الحديثة وتستر برودتها. تصبح القطع المقلدة من هذه الرواية مثل المشربيات، والأبواب التي تبدو عتيقة، وقطع الآثار المشابهة للطرز العربية العريقة، والوسائد والفرش يدوية الصنع المزركشة التي تجتمع كلها لتغير صبغة بيت حديث، يدار بالكهرباء، ويراقب بالكاميرات الرقمية، وتفتح أبوابه بشفرات إلكترونية، وينقى هواؤه بالمكيفات الحديثة. تجتمع كلها لترضي ذوق المستهلك دائم الحنين إلى الأصالة والماضي الجميل.

نستدعي هنا اللغة التي تستخدم في مقالات "حزب مقاومة المسخرة"، والجهاد الإلكتروني، والعصيان المدني الإلكتروني، وجهاد الإنترنت، وكتائب مكافحة العري، و"حملات" المقاطعة، وخطط مهاجمة الصهيونية وتدمير معاقلها وتحصيناتها على الإنترنت... يتحدث "مقاوم" في "حزب مقاومة المسخرة" عن أنه سيكون أول استشهادي في الحزب، وما يعنيه هو أنه سيقاوم نزوات الاستمناء التي تلح عليه. ويكتب آخر عن تنظيم محكم وخطة شاملة لحرب الصهيونية، وما يعنيه هو إنشاء قائمة بريدية إلكترونية وترك بعض الرسائل في دفاتر الزوار لبعض المواقع العالمية. ويتسابق الجميع لنشر قطع الرواية الكبرى في أطراف وحنايا وسطور مقالاتهم تمامًا كما يفعل قاطنو الأحياء الراقية حين يدهشونك بإبريق نحاسي ذي طراز عربي، قابع بكبرياء فوق قطعة أثاث أوروبية، بينما تغمره وتشير إليه أشعة إضاءة حديثة آتية من أحد الأركان.

"الجهاد المدني" بوصفه علامة ثقافية.. معانيها متحركة

في كتابه القيم "ثقافة الاستهلاك وما بعد الحداثة" يشير مايك فيزرستون إلى "الاستهلاك الثقافي". وفيه ترتبط السلع العادية بعلامات ثقافية مثيرة ومغرية، لكن لا علاقة لها بالسلعة. هذا العطر يجعل المرأة ذات شخصية قوية في العمل، وهذا الشاي يجعلك من أصحاب الذوق الرفيع، وهذه النظارة الشمسية تجعلك رياضيًا، وهذه السيارة تجعلك مرحًا، وهذا القميص يجعلك واثقًا من نفسك... وهكذا. ما يشتريه المستهلكون هنا ليس عطرًا أو شايًا أو قميصًا؛ هم يشترون العلامات الثقافية التي ارتبطت بهذه السلع العادية. في مرحلة أخرى يغدو هناك -كما يقول زيجمونت بومان- طوفان من العلامات الثقافية الفاقدة للمعنى، يقبل عليها المستهلكون، ويمنحونها المعاني التي تروق لهم في حرية كبيرة. المثال الشهير هنا أغاني الفيديو كليب التي تحتشد فيها الصور الخاطفة، والتي لا يربطها تسلسل عقلاني، يستمتع بها المشاهدون، ويضفون عليها المعاني التي تروق لكل منهم إن أرادوا ذلك.

هنا تغدو قطع الرواية الكبرى المبعثرة كالجهاد، والاستشهاد، والحملة، والكتيبة، والمقاومة، والخطة، مثل علامات ثقافية، مثل طوفان الصور الذي يغمرك فتستسلم لتياره، وتهب صوره المعاني التي تحتاجها. ما علاقة الكتيبة بمكافحة العري، أو الاستشهاد بالابتعاد عن الاستمناء، أو الحرب بإرسال الرسائل الإلكترونية؟ هذا لا يعني أن المضمون الذي تشير

This file was downloaded from QuranicThought.com

إليه هذه العلامات غير مهم أو غير جدير بالعمل والسعي الدائب. فقط هو لا علاقة له بالجهاد!

المسألة الأخرى هي الحرية في اختيار المعنى. التحاقي بإحدى كتائب الجهاد الإلكتروني قد تعني أني منفتح متواصل مع الغرب، وقد تعني أني متمسك بأصالتي ومقاوم لهذا الغرب، وقد تعني أني نشيط في دعوة منظّمة للإسلام، وقد تعني أني تحررت من قيود التنظيمات الإسلامية القديمة، وأصبح باستطاعتي القيام بنشاط عالمي دون الارتكان إلى أحد.

مرة أخرى نحن لا ندعو إلى عدم الالتحاق بكتائب الجهاد الإلكتروني. ما نود قوله هو أن معنى هذا الالتحاق وتلك المشاركة شأن شخصي، يخص النشط/المستهلك لتلك العلامات.

مسألة مهمة يؤكد عليها بومان، ونلحظها في مشروع "الجهاد المدني"، وهي أنه لا يمكن بحال فصل عمليتي الإنتاج والاستهلاك عن بعضهما. الذين يستهلكون هذه العلامات هم أنفسهم من ينتجونها. يرجع بومان إلى نموذج التعاونيات الاستهلاكية؛ حيث يقدر ربحك من التعاونية، أو نصيبك فيها، حسب مقدار ما استهلكته منها. كلما زاد استهلاكك زادت مشاركتك في الملكية، وقدرة المؤسسة على تجديد بضائعها والحفاظ على دائرة الاستهلاك التي لا تنتهي.

لا توجد هنا جهة تحدد ما الذي تستهلكه، ولا أي مقدار يجب استهلاكه. ما ينظم إدارة التعاونية ولا يجعلها تتحول إلى العشوائية أو الارتجالية هو الاستهلاك نفسه.. كمّه ونوعيته.

نعود هنا إلى أمثلتنا السابقة.. حزب مقاومة المسخرة، وكتائب مكافحة العري، والجهاد الإلكتروني، وإلى غيرها من الأمثلة كنشرة شعاب الحرية، والإعلام البديل، وانتخابات ساحة الحوار.. في هذه الأمثلة يكون الموقع -غالبًا- هو نقطة البداية، لكن زوار الموقع/المستهلكين يديرون العملية ويستمرون بها، بل وينتجونها أثناء استهلاكهم لمادتها. الجهاد المدني كمشروع حين يدعوك لاستهلاك خطابه وعلاماته الثقافية هو يعدك أيضًا أن تكون منتجًا لهذا المشروع، يمكنك أن تنتج النشاط الذي تحب، وتستهلكه، وتمنحه علامات الجهاد وصوره، وتغذيه بالمعنى الذي يرضيك.

أما ما نؤكده في نهاية المقال فهو الاتجاه الإيجابي الذي تحرك فيه هذا الخطاب؛ حيث بدأ من منطلقات المقاومة والتدمير كالمقالات التي كانت تدعو صراحة أو ضمنًا إلى القرصنة على المواقع "المعادية"، ثم توجه إلى التواصل وتفتيت الآخر؛ كمقال جهاد الإنترنت، وصولا إلى النداء بالحاجة للدخول في التفاصيل العملية، والمبادرات الواقعية، مثل مقال الجهاد الإلكتروني، وكثير من مقالات ساحة مناهضة الحرب.

ختامًا.. أود أن أقول: إنه لو أراد الله تعالى أن أستأنف الكتابة في هذا الموضوع، فسأعود لطرح سؤال الإنتاج لنتحقق من صدقه أو زيفه، ونربط مسألة الجهاد المدني باتجاهات الليبرالية الجديدة، ونحلل الخطاب من حيث أركانه الثلاثة: المفاهيم والمعرفة التي يحملها، والشخصية التي ينتجها، ونظام القوى الذي يحفظ هذا الخطاب، كما نبين السلطة والقوة التي يمارسها هذا الخطاب ليخص أقوامًا ويحجب آخرين.

... والله أعلم

الجهاد.. أسلحة كثيرة قبل هدير المدافع

هبة رءوف عزت 2000/11/1

البيعة بما تعنيه من التزام بالشريعة، والشورى بما تمثله من مشاركة للأمة في الإدارة السياسية؛ هما أساس النظام الإسلامي، لكن الأهم هو تكييف النظام ذاته باعتباره ولاية وإقامة للدين وتدبيرًا للمصالح العامة على الجملة أو ولاية حفظ الدين وسياسة الدنيا به، وهذا ليس وصف نظام سياسي سلطوي، بل جوهر الولاية الإيمانية لكل مسلم؛ لذا يلزم عند الحديث عن الجهاد البدء بالفرد ودوره وأشكال هذا الدور قبل الحديث –الذي لا غنى عنه-عن حرب وجيش ومدافع.

الفعل الجهادي في الداخل أولاً

قبل الحديث عن جهاد الخارج تبدأ فاعلية المواطن المسلم في الداخل، في تأسيس وضمان نظام سياسي عادل وشوري(بكسر الياء) يمكن أن يجاهد أعداء الخارج؛ لذا فلا تنفصل الفاعلية السياسية للمسلم في الداخل عنها في الخارج، فقبل المجاهد يجب أن يكون هناك المواطن الحاضر الفاعل الشاهد على الجماعة المسلمة وعلى العالمين (لتكونوا شهداء على الناس)، فالشهود يسبق.. الشهادة!

This file was downloaded from QuranicThought.com

وتتأسس الطبيعة التعاقدية للبيعة السياسية التي تؤسس نظام الشورى النيابي في الإسلام على "التفويض" في حين يذهب آخرون إلى أنها "وكالة ونيابة"، لكن يبقى الجوهر هو أن نظام الحكم في الإسلام قائم على حاكمية الله أي كونه تعالى مصدر الشريعة، والأمة صاحبة الشريعة، ونظام الإدارة السياسية الممارس والمنفذ لهذه الشريعة في الجانب القانوني والتنفيذي/الإداري، وعلى ذلك فإن الوجه الآخر للبيعة هو المسؤولية السياسية لأفراد النظام السياسي، فسلطتهم ليست مطلقة بل مقيدة بالشرع والشورى؛ وبذا يصبح عدم الالتزام بالشرع وترك الأخذ بالشورى واقتراف الظلم موجبًا للمسؤولية السياسية للنظام ومبررًا لعزله، واسترداد الأمة ولايتها مرة أخرى لتعهد بإدارتها إلى غيره.

ويأخذ عزل النظام أشكالاً سلمية مثل عزله عن طريق أهل الحل والعقد أو محكمة المظالم أو حتى تنحية الخليفة/الرئيس ذاته، كما قد يأخذ الشكل العنيف أو ما يسمى بالخروج على الحاكم، وهو الذي انقسمت بشأنه الآراء في الفكر الإسلامي إلى ثلاث مدارس رئيسية: مدرسة الصبر، ومدرسة السيف، وبينهما مدرسة التمكن كشرط للخروج، واجتمعت تلك المدارس كلها رغم اختلافاتها على ضرورة الخروج على الحاكم إذا ارتكب كفرًا صريحًا، وهو الشرط الذي بقي تاريخيًّا أقرب إلى الفرض النظري البحت للتحقق الواقعي.

واللافت للنظر والجدير بالتأمل أن هذه المدارس رغم اختلافها كانت ترى الثورة المسلحة شكلاً أساسيًّا من أشكال التغير السياسي، فالفريق الأول يرفضها لمحاذير خاصة بوحدة الأمة ويفضل التغيير بالقلب واللسان، والفريق الثاني يقبلها ويبررها إذ التغيير لازم باليد، والفريق الأخير يقبلها بشروط، ولكنها تبقى في التحليل الأخير محور الخلاف، ولم تتعرض الكتابات الفقهية أو الفلسفية إلا نادرًا لمسألة المقاومة السلبية وعدم التعاون مع الحاكم، وظل تناول هذه المسألة يأخذ البعد الفردي؛ حيث أشار البعض إلى سلوك بعض العلماء ومقاطعتهم للحكام الظالمين، ولم يتم طرح الأمر على المستوى العام.

وإذا كانت المدارس الفكرية الإسلامية قد اختلفت في هذه القضية مع وجود الدولة الإسلامية التي تحكم بالشرع وإن شابها قصور، فإن الحاجة تصبح ماسة في ظل الدولة القطرية العلمانية التي سادت كشكل من أشكال الدولة في معظم بلدان العالم الإسلامي إلى إعادة النظر في "خطاب الخروج" وتجديده. فقد ترتب على انهيار القيم الحضارية واختفاء الدولة القومية المتكاملة أن حدث انفصام بين النواحي العقيدية والنواحي النظامية، ولم تقتصر الأنظمة الحاكمة على الفصل بين الدولة والعقيدة، بل دخلت مع الأخيرة في صراع وتخاذلت عن الدفاع عن مقدسات الأمة المعنوية والمكانية بشكل لا يحتاج هنا البتة لتوضيحه وتفصيله، وبدلاً من أن تعلن الدولة القطرية الالتزام بالشرع، وتجعله أساس النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وتقيم على نهجه علاقاتها الدولية، تبنت هذه الدولة الأيدلوجيات الوضعية، وأسست عليها نظمها المختلفة مما أدى إلى وقوعها في أزمة شرعية حادة نتيجة تخليها عن أداء وظيفتها العقيدية، بل وحتى وظائفها المفترضة في النظرية الغربية، وهي تحقيق التكامل والهوية والشرعية والمشاركة والتوزيع، وبناء مؤسسات تتسم بالتكيف والتعقد والاستقلال والاتساق.

ويثور في هذا السياق التساؤل: كيف استطاعت الدولة القطرية الاستمرار رغم أنها لم تحقق وظائفها ولم تتسق في شكلها وطبيعتها مع ثقافة الأمة وظروفها الحضارية؟

يرجع البعض استمرار الدولة القطرية العلمانية في المحيط الإسلامي والعربي ـ بل وترسخها في التربة الواقعية بعد قرابة نصف قرن من نشأتها ـ إلى قدرتها على بلورة آليات لاستيعاب الجماعات والفئات المختلفة، والمؤسسات الفكرية والدينية والأحزاب والقوى السياسية، وتوفيرها للحد الأدنى من المطالب والمخرجات التي تتطلبها بيئة النظام السياسي من ناحية، إلى جانب استخدام العنف واعتمادها المتزايد على القمع من ناحية أخرى، في حين ترجع دراسات أخرى استمرار الدولة إلى أثر العوامل الخارجية والظروف الدولية وطبيعة النظام الدولي القائم، وترى أن الدولة القطرية نشأت في البداية كانعكاس للطبيعة السياسية لهذا النظام الدولي في مرحلة الاستعمار. واستمرارها يرجع إلى طبيعة شكل الدولة السائد فيه الآن، وطبيعة النظام الاقتصادي الدولي الرأسمالي المهيمن وحسابات السوق العالمية، والتي تحقق نجاحها بالاعتماد على هذا الشكل من العلاقات غير المتكافئة.

إن الدولة القطرية لم تتحرر حقيقة بعد الاستقلال، بل خضعت لأشكال جديدة من التبعية الاقتصادية والسياسية بل والإعلامية والتربوية، وهو ما يُسمى بالاستعمار الجديد أو "الاستعمار الهيكلي" الذي تتداخل فيه السيطرة الخارجية مع الاستبداد السياسي والقوى الدولية مع النخب الحاكمة في علاقات ومصالح تصفها بعض الكتابات بأنها علاقة مركز بهامش، مما يجعل موضوعي "الجهاد" و"الخروج" متداخلين في الواقع العملي، ولا يمكن فهم أي منهما بمعزل عن الآخر.

فالجهاد وظيفته إقامة الدين وحفظه وإزالة الشرك ومواجهة أي عدوان يستهدف الشريعة أو أي اعتداء على الدولة الإسلامية ونظامها من جانب أي قوة خارجية، وهي ذات الأهداف التي يتم "الخروج" من أجلها لكن في مواجهة نظام الحكم الداخلي حال استبداده وتركه الشورى.

This file was downloaded from QuranicThought.com

إن حفظ الدين كأول مقاصد الشرع هو غاية كل من الجهاد والخروج، كما أن كليهما أمر بالمعروف ونهي عن المنكر. والأصل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنه فرض كفاية أي إن الأمة كلها مكلفة بإقامته، لكنه إذا التزم كل واحد بذلك لم يتفرغ الناس لمصالح دنياهم؛ لذا يصبح واجبًا في حق الدولة خاصة في الأمور النظامية ويسقط عن الأفراد إلا في الأمور الفردية اللازمة لضبط علاقاتهم، فإذا قصرت الدولة أصبح واجبًا على كل فرد؛ وبذا تصان الأمة من عوامل الانهيار الذي هو نتيجة حتمية للانحراف عن الشرع.

والجهاد فرض كفاية عند جمهور الفقهاء، إذا قام به البعض سقط عن الباقين، وإذا لم يقم به من فيه كفاية أثم الجميع، وهو واجب على الكافة إذا دخل العدو ديار المسلمين، كما أن مراقبة النظام وتقويمه فرض كفاية يقوم به أهل الاجتهاد وأهل الحل والعقد الذين لهم حق نقض بيعة الحاكم وعزله إذا أخل بالشريعة الإسلامية، فإذا لم يفعلوا وأضحى العمل بالشريعة موضع تهديد أصبح الامتناع عن طاعة الحاكم واجبًا على كل أفراد الأمة.

جهاد مسلح.. أم لا شيء؟!

وإذا كان الجهاد المسلح قد صار في أحيان كثيرة متعذراً نظرًا لطبيعة الاستعمار الجديد الهيكلية، كما أضحى الخروج المسلح أيضًا صعباً في أقطار إسلامية عديدة لقوة الدولة وبطشها في مواجهة المجتمع، فإن الجهاد والخروج لا يَسقطان كواجب على الأمة، بل يأخذان شكلاً مختلفًا يتفق والواقع الراهن الذي تمر به الأمة الإسلامية، والذي لم يسبق له مثيل في تاريخها، ألا وهو الشكل الهيكلي، أي الذي يجعل تحرير الأبنية والمؤسسات والهياكل هو ساحة الجهاد الأولى ومجال الخروج بهدف استعادة سلطان الأمة وحاكمية الشريعة الإسلامية.

لقد أصبحت ساحة التنمية هي أقرب وأول ساحات العمل الجهادي، وساحة المجتمع هي ساحة استعادة الشرعية الإسلامية، فالتنمية يلزم أن تكون عملية تحرر شامل وتغيير بنائي اجتماعي واقتصادي وسياسي متكامل ذات أبعاد قطرية وقومية تقوم على تعبئة الإمكانات وتوظيفها بأفضل ما يمكن لتحقيق استقلال الأمة، مع بلورة آليات للتنمية لا تقتفي بالضرورة أثر النمط الغربي، بل تعتمد على القدرات الذاتية وتتسق مع البناء الاجتماعي والثقافي، وتعتمد على الإنسان وتحدد بدقة مجالات الدولة ومجالات الجماعة كي يتم التوزيع الواعي للأعمال الحضارية، فالجهاد في مجتمعات إسلامية عديدة ينبغي أن يكون تربويًّا وإعلاميًّا واقتصاديًّا وسياسيًّا، وهو ما يتطلب نفيرًا عامًا "يحضر" فيه المجتمع بعد أن غابت أو عجزت النظم السياسية.

أما الخروج فإن الشكل الذي يجب أن يطرح له ويتم تأصيله فكريًا وبلورة آلياته واقعيًا هو ما يسمى "الدفاع الشرعي العام" في كتابات إسلامية، و"العصيان المدني" في الكتابات الغربية. فإذا كان العنف ـ كوسيلة لتغيير أنظم الحكم المخترقة التابعة ـ غير مطروح في أقطار إسلامية كثيرة لأسباب داخلية وعوامل خارجية فإن "اللاعنف" قد يصبح في لحظة تاريخية ما سلاحاً متاحاً في تحقيق التغيير، ومن هنا تصبح الانتفاضة نموذجاً فعالاً للتغيير في كل أرض ومكان، و"المقاطعة" أداة بسيطة للتعامل الفردي الراشد مع النظام العالمي الرأسمالي الذي اخترق الحدود وصولاً لاختيارات الفرد الاستهلاكية اليومية.

وتقوم فكرة "الدفاع الشرعي العام" على حرمان النظام السياسي غير الشرعي من المساندة والتأييد لإهداره الشرعية الإسلامية، فالامتناع عن المشاركة في أمر غير شرعي نتيجة طبيعية لإخلال الحاكم بواجباته وفي مقدمتها الالتزام بإقامة شريعة الله، والنظام الإسلامي يقوم على الالتزامات، فإذا أسقط الحاكم واجبه سقط واجب الرعية في طاعته ونصرته، وهو الامتناع الذي يأخذ صورًا عديدة كالاحتجاج الرمزي وعدم التعاون الجماعي والاعتصامات والإضرابات والمقاطعات الاقتصادية وغيرها من "أسلحة اللاعنف".

وتنقسم أساليب عدم التعاون إلى ثلاثة مستويات:

- أساليب عدم التعاون الاجتماعي: وتتضمن المقاطعات الاجتماعية.
- أساليب عدم التعاون الاقتصادي: وتتضمن المقاطعات الاقتصادية والإضرابات.
- أساليب عدم التعاون السياسي: ويطلق عليها أيضًا المقاطعة السياسية.

وحين يرفض المجتمع التعاون مع النظام ومع الهياكل الاقتصادية الرأسمالية ويصر على العصيان والمقاومة غير العنيفة، فإنه يحرم هذا النظام الخارج عن الشريعة من الدعم الذي تحتاجه أي حكومة أو نظام ويفقده عناصر قوته، وهو ما يؤدي في النهاية إلى سقوطه حتى وإن لجأ للقمع في مواجهة هذه الحركة المجتمعية الشاملة؛ إذ لم يصمد أي نظام في مواجهتها إذا أحسنت إدارة اللاعنف، واستخدمت الآليات المختلفة بشكل جيد، مع ملاحظة أن وجود نظام بديل أو حكومة ظل من الرموز الاجتماعية والسياسية يصبح أمرًا لازمًا كي يمكن استبدال النظام المتهاوي، ولا تحدث عند سقوطه فوضى شاملة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

ولما كان تحرير الأبنية المختلفة من التبعية يستلزم مشاركة الجماهير في جهود التنمية بشكل فعال، في حين تعد آلية الامتناع والعصيان أهم أدوات مقاومة استبداد الأنظمة العملية داخليًا، فإن التوفيق بين الآليتين يجب أن يدار بشكل منظم من جانب القوى الاجتماعية؛ بحيث يتم دعم قطاعات اقتصادية وسياسية معينة لدفع استقلالها وتطورها، في حين تتم مقاطعة قطاعات أخرى وحرمانها من المساندة والتأييد لإضعافها مع انتقاء لدرجات الدعم ودرجات الامتناع في كل موقف حسب المصلحة الشرعية وبلورة أشكال مجتمعية تحتية موازية وجديدة تحقق للمجتمع تماسكه وتكفل له القدرة على الاستمرار في الجهاد والخروج الهيكليين.

المرأة فاعل رئيسي

ويعد هذا السياق مناسباً لمناقشة ودعم دور وجهاد المرأة في المجتمع الإسلامي المعاصر، فإذا كان هناك إجماع على وجوب الجهاد على المرأة عند دخول العدو دار الإسلام والنفير العام، بل ذهب البعض إلى أنها تقاتل حينئذ بغير إذن زوجها. وإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبًا على كل مؤمنة بنص الآية: (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) (التوبة: 72)، فإن المرأة في ظل الظروف الراهنة للأمة يجب عليها وجوب عين الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في شتى مستوياته ومنها الخروج، وكذلك الجهاد بمستوياته وأدواته المختلفة، وهو الأمر الذي أغفلته كثير من الكتابات المعاصرة عن المرأة، والتي اكتفت إما بالسرد التاريخي لدور المرأة في مجتمع الرسول، أو التخريج الفقهي لحكم جهادها دون تنزيل الحكم على واقع المرأة المسلمة في ظل التحديات التي تواجه الأمة. واقتصر تحليل دور المرأة في "الخروج" على تناول وقائع مشاركة السيدة عائشة في موقعة الجمل والخروج على علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وعلى آل البيت والصحابة أجمعين، في حين ظل طرح حكم جهاد المرأة يدور في إطار فرضية الكفاية دون التفات إلى أن فريضة الكفاية لا تنفي مشاركة النساء وفق القدرة والرغبة في القتال المسلح والخدمات الإنسانية والطبية العسكرية كما حدث على عهد رسول الله، وهو ما يتطلب قيام الدولة بتوفير التدريب العسكري على فنون الحرب المختلفة للقادرات الراغبات، إلى جانب توفيرها لتدريب عام على الدفاع المدني للكافة كي تكون كل امرأة مؤهلة ومستعدة إذا ما أضحى الجهاد فرض عين وتهددت الدولة الإسلامية، وهو حال العديد من البقاع الإسلامية اليوم.

أما في حالة عدم توفر شروط القوة اللازمة للجهاد المسلح ووجوب الجهاد الهيكلي فإن النساء يلتزمن بالمشاركة في جهود التنمية في شتى المجالات، كل واحدة على قدر جهدها ووسعها وقدرتها، وتقديرها لظروفها، مع الوعي بأن هذا ليس عملا اختياريًّا أو تطوعيًّا بل هو جهاد اللحظة الراهنة، جهاد حقيقة لا مجازاً.

ويتميز طرح مسألة حركة المرأة في العمل السياسي في الواقع الراهن من خلال مدخلي الجهاد والخروج الهيكليين بما يلي:

- إنه يمثل إطارًا مرجعيًّا شرعيًّا لحركة المرأة يجعل مسئوليتها في الفعاليات الاجتماعية والسياسية المختلفة، مشاركة أو امتناعًا واجبًا عينيًا، وهو ما يشكل أساسًا تعبويًا يقوم على عقيدة الأمة ويدفع لدمج المرأة في أنشطة الأمة، وهما الدمج والتعبئة اللذان فشلت شعارات التنمية والمواطنة الصالحة في تحقيقيهما على مستوى معظم قطاعات النساء في العالم الإسلامي.

- إن هذا الإطار الجهادي يسمح برغم السياق الاجتماعي الراهن ـ الذي يقيد حركة المرأة في مجتمعات إسلامية عديدة ـ بحركة واسعة للمرأة؛ إذ إن السياق الاجتماعي عادة ما يصبح أكثر مرونة في ظل المناخ الجهادي عنه في الظروف العادية، وهو ما يمكن أن يعطي النساء دفعة لتغيير أوضاعهن تحت مظلة الشرعية الإسلامية.

- إنه يشكل خطابًا جديدًا يتجاوز الجدل السائد بشأن عمل المرأة، والذي يتراوح ما بين الخطاب العلماني الذي يرى أن عمل المرأة خارج بيتها بمقابل مادي هو معيار استقلالها الاقتصادي ومساواتها الاجتماعية وأساس مشاركتها السياسية، والخطاب الإسلامي الذي تتفاوت درجاته بشأن عمل المرأة خارج بيتها بين التحريم والإباحة؛ إذ يصبح عمل المرأة واجبًا شرعيًا في سياق الجهاد ويرتبط بالأمة، وهو ما يميزه عن الرؤية العلمانية التي تعتبره مكسبًا فئويًا وطموحًا فرديًا مشروعًا.

- إنه يمثل مدخلاً للتعامل بواقعية مع السياق التاريخي الذي تمر به الأمة؛ إذ تفرق فرضية العين بين النساء وظروفهن فتكلف كل امرأة بما يلائم قدراتها ومرحلتها العمرية والتزاماتها الأسرية، وتتحدد أولويات العمل بالمعايير الشرعية، وهو ما يجعل الاستثمار في "رأس المال البشري" أي التربية في الأسرة، عملاً تنمويًّا لا يقل أهمية عن العمل الوظيفي العام، ويعطي العمل الاجتماعي بغير مقابل مادي ثقلاً موازيًا للعمل المؤسسي بمقابل مادي. فالعبرة في المنظور الإسلامي بتحقيق المقاصد وليست بدرجة المؤسسية أو البعد المالي.

عودة مؤسسات الأمة

This file was downloaded from QuranicThought.com

لقد قام الاستعمار التقليدي ثم الاستعمار الجديد بتجاوز بل ومحاولة القضاء على الوحدات الاجتماعية للكيان الحضاري الإسلامي كالأسرة الممتدة والحارة والنقابة والجامع والطريقة، وهي الوحدات التي كانت تجذب الأفراد بشكل يومي إلى حلبة التفاعل السياسي، إلى جانب مؤسسات كالوقف والمستشفيات والمدارس والأسبلة والتي كان لها دور اجتماعي بارز، وهي الفاعلية التي افتقدتها المؤسسات المستوردة التي لم تستطع أن تحقق الصلاحية في المجتمع لغربتها عنه؛ لذا كان إحياء هذه الوحدات الاجتماعية لازمًا إذا أريد لجهود التنمية أن تنجح، وكان العمل الاجتماعي الذي يستهدف تنمية المجتمع ورفع مستوى أفراده والذي يسمى في الكتابات المعاصرة "العمل التطوعي" في الرؤية الإسلامية واجبًا، ويكتسب عند الحديث عن مسؤولية المرأة السياسية أهمية كبيرة لتميزه بملاءمة شروطه وظروفه لظروف قطاعات واسعة من النساء، إلى جانب القبول الاجتماعي لحركة المرأة في إطار وهو ما يعطيها حرية أوسع في هذا المجال الهام.

كذلك فإن الدوران مع المقاصد والغايات في الرؤية الإسلامية، وليس الشكل المؤسسي، يفتح الآفاق أمام كل صور العمل الإنتاجي مثل الصناعات الصغيرة داخل المنازل، وهو ما يجعل فكرة "تقسيم العمل الاجتماعي" بين الرجال والنساء ـ وهي فكرة غربية في الأصل ـ في حاجة إلى إعادة نظر، ودليلنا في نقضها ممارسة الرسول لدوري الرسول/القائد والأب بتوازن بالغ، وهي فكرة تتجاهل تداخل الواجبات وتعدد المستويات واختلاف النظرة الإسلامية للعمل وأشكاله والمؤسسات السياسية وآلياتها عن الرؤية الغربية، ووضع المسائل داخل الإطار الإسلامي والجهادي يعيد الفكر للسياق الإسلامي والواقعي معًا.

إن مشاركة المسلم في العمل الجهادي الهيكلي بكل صوره واجب عيني، وإذا كانت الرؤية الإسلامية تعطي ثقلاً أكبر في العمل السياسي لمؤسسات كالنقابات والاتحادات كما ذكرنا في معرض الحديث عن الشورى، وتعطي مسؤوليات أكبر لوحدات كالمساجد والمدارس والأوقاف كما ذكرنا آنفًا، فإن حركة المسلم يجب أن تركز على دعم هذه الأبنية، وإضعاف الأبنية الأكثر تغريبًا واختراقًا، وهو ما يستلزم بلورة آليات جديدة لحركة الفرد السياسية، ونظرة جديدة لمجالاتها، وصياغة جديدة لمؤشرات دراستها ومتابعتها تختلف عن المؤشرات المستخدمة في الدراسات الاجتماعية والسياسية الحالية.

إن غاية ما سبق ليس تعطيل الجهاد المسلح إذا توفرت فرصه، بل عدم الركون للدعة والراحة عند عدم استكمال عدته عملا بقول الرسول: إن الجهاد سيمضي في الأمة إلى يوم الدين.. وما سبق اجتهاد في تفصيل كيف يظل الجهاد ماضياً لا ينقطع حتى حين تسكت المدافع إلى حين؛ لأن جسد الأمة في مراحل الضعف لا يخمد.. بل يظل منتفضاً وحيًّا.

This file was downloaded from QuranicThought.com